

محمد محي الدين المشرفي

إفريقيا السمالية

في العصر القديم

دار الكتب العربية



إِقْرِئْنَا الشَّمَالِيَّةَ فِي الْعَصْرِ الْقَدِيمِ

تَأَلَّفَ
مُحَمَّدُ مَحْيِي الدِّينِ الْمَشْرِفِي
مدير معهد الدراسات والأبحاث للتعريب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة 1389 - 1969
محققة ومراجعة ومزودة

دار الكتب العربیة

الْأَهْفُوكَاةُ

إِلَى الْمَغْفُورِ لَهُ - وَالَّذِي - أَهْدَى هَذَا
الْكِتَابَ ، اِعْتَرَا فَا لَهُ بَعْضُ مَا اسْتَدَى
إِلَى مَنْ الْجَمِيلُ ، فِي جَيَاتِهِ الْقَصِيرَةُ إِلَى
ضَرْبٍ بِهَا لَا بُدَّ الْبَرَكَةِ مَشَا
عَالِيًا فِي الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ وَالسَّيِّ
مَنْ وَكَرَّاءَ الْمَصْبِيحَةِ الْعَامَّةِ .

المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

هذه فصول تشتمل على تاريخ افريقيا الشمالية من العصر القديم الى الفتح الإسلامي ، لم نهدف بكتابتها الى وضع مؤلف علمي مفصل ؛ وإنما غايتنا منها أن نجعل بين أيدي طلبتنا المستنيرين الذين يظهرون اهتماماً خاصاً بدراسة تاريخهم الغابر صفحات تعينهم على فهم الحوادث التاريخية والأزمات السياسية التي طالما تألمت لها هذه البلاد ، راجين أن تفيدهم - في نفس الوقت - ببعض المعلومات التي لا غنى للطالب عنها مما يتعلق بالحالة الاجتماعية والاقتصادية والأدبية والفنية التي مرت بها افريقيا الشمالية خلال العصور القديمة

وقد اعتمدنا في تحرير هذه الفصول على عدة مراجع عربية وفرنسية ، أهمها كتاب « قرطاجنة في أربعة عصور » للمؤرخ الشهير الاستاذ احمد توفيق المدني الذي امتازت مؤلفاته العديدة في تاريخ المغرب العربي بدقة البحث وحسن الإنتاج ومتانة الأسلوب ؛ وحرصنا على تجميل هذه الفصول ببعض الصور والخرائط زيادة في الإيضاح ، كما ذيلنا كل فصل منها ببطالة تاريخية مناسبة

فالمؤمل أن ينال هذا الكتاب من شبابنا المتعطش كل
الرضى ويحمل ذوي الهمم منا على العناية - أكثر من ذي
قبل - بهذه الحقبة من تاريخنا المجيد ودرسها درساً منظماً
أساسه البحث الصحيح والنقد النزيه ، والله تعالى ولي التوفيق
وعليه الاعتماد

محمد محي الدين المشرفي

وجدة في 28 مايو 1949

الفصل الأول

كلمة في وصف افريقيا الشمالية

موقع البلاد وحدودها - تعريفها وتقسيمها السياسي -
الجبال والسهول - المياه - الفلاحة والصناعة - السكان والمدن -
الحياة الاقتصادية

تقع افريقيا الشمالية - أو بلاد المغرب كما كان يسميها
الأقدمون - في الناحية الشمالية من القارة الافريقية، بين الخط
28 و 37 من خطوط العرض الشمالية كما تقع بين الدرجة 13
غرباً والدرجة 10 شرقاً من خطوط الطول ؛ وتبلغ مساحتها
950,000 كيلومتر مربع ، هذا بغض النظر عن توابعها
الصحراوية ، ويتراوح عدد سكانها بين 28 و 30 مليون نسمة
على حسب ما جاء في الاحصاءات الرسمية ، بحيث نستطيع
تقدير كثافة السكان بثلاثين نسمة لكل كيلومتر مربع ، على
وجه التقريب ؛ وهو - كما ترى - قدر ضئيل بالنسبة لعرض
البلاد المغربية

أما حدودها الطبيعية فهي البحر الأبيض المتوسط من
الشرق والشمال ، ومحيط الأطلنتيك من الغرب ؛ اما من جهة

الجنوب فرمال الصحراء المترامية الأطراف تفصل المغرب عن بقية القارة الافريقية

وقد عرفت افريقيا الشمالية منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة ؛ فاليونان مثلاً ، كانوا يسمونها « ليبيا » في حين أن الرومان كانوا يطلقون عليها كلمة « أفريكا - Africa - » ؛ على ان هذا اللفظ انما وضع - أول الأمر - للمنطقة المعروفة الآن بالقطر التونسي ؛ لكن سرعان ما عم استعمال هذه الكلمة ؛ فأصبح يفهم من لفظة « أفريكا » بلاد المغرب بأسرها وبعد ذلك افتتحها العرب ؛ فعرفت عندهم « بجزيرة المغرب » نظراً لأن البحر يكتنفها من ثلاث جهات ورمال الصحراء من الجهة الرابعة ؛ وأطلقوا بالخصوص كلمة « المغرب الأقصى » على القسم الغربي منها نظراً لبعده عن الجزيرة العربية

وتنقسم هذه البلاد العريضة التي تعتبر همزة الوصل بين أوروبا وافريقيا السوداء الى أقسام ثلاثة من الناحية السياسية أولاً - المملكة المغربية - أو المغرب الأقصى - وتبلغ مساحتها 450,000 كيلومتر مربع بقطع النظر عن أجزائها المغتصبة ؛ وعدد سكانها 14 مليون نسمة ؛ دخلت تحت الحماية الفرنسية سنة 1912 م ونالت استقلالها بعد كفاح مرير سنة 1956

ثانياً - المغرب الأوسط ، أو ما يعرف بالجزائر ، وقع احتلالها منذ سنة 1830م مساحتها 375,000 كيلومتر مربع ؛ وعدد سكانها يزيد قليلاً على 10,000,000 نسمة .

ثالثاً - الجمهورية التونسية التي تبلغ مساحتها 155,000 كيلومتر مربع وعدد سكانها 4,500,000 دخلت هي الأخرى تحت الحماية الفرنسية سنة 1881 . واعترف باستقلالها سنة 1956 أيضاً

ومما ينبغي الإشارة إليه ان هذين القطرين الأخيرين لم يتخلفا مرة واحدة عن المشاركة في كل الحركات التي غشيت البلاد المغربية ، سواء كانت هذه الحركة اجتماعية أم سياسية ؛ وقد أخذوا أيضاً حظها من المدينيات القديمة التي طرأت على هذه البلاد ، في حين ان المغرب الأقصى وان كان حسن الموقع إلا انه ظل منعزلاً عن بقية الشعوب القديمة ، وذلك بوجود جبال الأطلس المتوسط التي فصلته عن المغربين الأدنى والأوسط من جهة ، ومضيق جبل طارق الذي فصله - من جهة أخرى - عن أوروبا

هذا وتخترق بلاد المغرب من أقصاه الى أقصاه سلسلة جبلية عظيمة يعتبرها الجغرافيون جزءاً من جبال « الألب » الأوربية - Alpes - ؛ وتبتدىء تلك الجبال في ساحل البحر الأبيض الشرقي وتنتهي بالساحل الأطلنطي ؛ وهي من المغرب الى المشرق

أولاً - جبال الريف الشمالية الواقعة بالمغرب الأقصى ؛ وتشتمل من جهة على الأطلس الساحلي البالغ ارتفاعه 2,300 متراً في جبال جرجرة (الجزائر) ؛ وعلى جبال « بيتكة » (Bétique) في الأندلس ، من جهة أخرى .

ثانياً - الأطلس التلي، وهو عبارة عن سلسلة جبلية أخرى عظيمة تتجه من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ؛ والظاهر أن الأطلس التلي يتصل بجبال الأطلس المتوسط الذي يعتبره علماء الجيولوجيا بمثابة خزان تدر فيه كمية عظيمة من الماء عند ذوبان الثلوج ؛ وفيه يقع جبل أبو إيبلان المشهور الذي يبلغ ارتفاعه 3,000 متر أما جبال الأطلس التلي فلا يزيد ارتفاعها بالمغرب الأوسط عن 1975 متراً ؛ ثم انها تنتهي بجبال « خمير » بالجمهورية التونسية ، وهي جبال متوسطة الارتفاع

ثالثاً - الأطلس الصحراوي ؛ ويبتدىء أيضاً بالمغرب الأقصى حيث يحمل اسم الأطلس الكبير ، الشامخ بأنفه الى السماء ؛ وفيه جبل « العياشي » الذي يتراوح ارتفاعه بين 3,000 و 4,000 من الأمتار ؛ وهناك أيضاً الأطلس الصغير وفيه جبل « سيروا » ، البركان القديم (3,000 م) ؛ ويمتد الأطلس الصحراوي الى الجمهورية التونسية ، وفيها يعرف ذلك القسم منه بجبال زغوان وتحتوي هذه السلسلة بالمغرب الأوسط على قطع جبلية هامة منها جبال « القصور » وجبال « اولاد نايل » وجبال « الأوراس » التي يتجاوز ارتفاعها 2,300 من الأمتار ؛ وأغلب هذه الجبال تكسوها الغابات وتكفلها الثلوج .

هذا وفي بلاد المغرب نجد واسعة ترعى فيها الماشية؛ وتقع غالباً بين جبال الأطلس والسهول الاطلنطية أو بين الاطلس

التلي والاطلس الصحراوي ؛ ويوجد البعض الآخر منها حول المدن التي اشتهرت بتربية الغنم والإبل كمدينتي برشجم وفجيج الواقعتين بالمغرب الأقصى

وهناك سهول فيحاء نجد عدداً منها على ساحلي البحر المحيط والبحر الابيض المتوسط أشهرها سهول شاوية ودكالة وعبدة بالمغرب الأقصى ؛ أما السهول الواقعة على الساحل الجزائري فهي لا تكاد تذكر لضيقها وقلة عددها في آن واحد والسبب في ذلك يرجع الى وقوع جبال الأطلس الساحلي قريبة جداً من الشاطئ البحري ؛ على انه اذا كانت تلك السهول تمتاز بقلة العدد وعدم الأهمية بحيث لا يمكن استخدامها للزراعة بصورة واسعة النطاق ، فمن المعلوم ان من ورائها سلسلة أخرى من السهول تعرف بسهول ماكتة ووهران ومجربى وادي شلف ، وكلها بالقطر الجزائري الشقيق ؛ يُضاف اليها سهل مجردة بتونس ؛ وهذه السهول هي في الجملة أعظم أهمية بالنسبة للأولى من الناحية التاريخية ، اذ استخدمها الفاتحون ، منذ قديم الزمان ، للتوغل في داخل البلاد وبسط نفوذهم على أطرافها ومن الملاحظ أنها لا تزال حتى اليوم تستخدم لنفس الغرض المذكور ، كما استخدمها الفاتحون لوضع طرق المواصلات الرابطة بين أطراف البلاد

هذا وهناك سهول أخرى واسعة الأرجاء حول مدينتي فاس ومكناس يستعملها الملاكون للزراعة وإنتاج أنواع الخضار والفواكه .



جبل « المحصر » بناحية وجدة ويشتمل على بعض الآثار الرومانية والبربرية

وتختلف نواحي البلاد المغربية من حيث الامطار باختلاف
طقسها وبعدها من البحار فهناك نواح غزيرة المياه ؛ كثيرة
الودية والآبار كالنواحي الواقعة بين جبال الاطلس المتوسط
وساحل الاطلنتيك أو كالناحية الشمالية من الجمهورية التونسية؛
وهناك قسم جاف مثل الجهات الواقعة من وراء الاطلس
المتوسط أو المشرفة منها على رمال الصحراء؛ فليس فيها توازن
في الحرارة وليس يوجد فيها من الماء ما يشفي الغليل اذا نحن
استثنينا وادي ملوية الكبير ووادي شلف ونهر مجردة
والسبب في ذلك ان جبال الاطلس المتوسط تقع سداً منيعاً
في غرب البلاد ؛ فلا تجد السحب المتصاعدة من المحيط قدرة
على اجتياز قممه العالية ؛ فتتحول الى مياه منهمة تنصب

بغزارة ؛ فيتسرب بعضها الى جوف الجبل ويسيل البعض الآخر على سفحه

وهذه الأودية والأنهار في بلاد المغرب تنقسم الى ثلاثة أقسام غربية وشمالية وجنوبية فاما الغربية منها فلها أهمية بالغة نظراً لطولها ، وسبب ذلك ان منابعها تبعد كثيراً عن مصباتها ؛ وهذا ما جعل بعضها صالحاً في الجملة للملاحة كوادي سبو أو لتوليد الكهرباء كوادي أم الربيع بالمغرب الأقصى

الأنهار الشمالية قصيرة بصفة عامة لقرب منابعها من الشاطئ ؛ وأعظم هذه الأنهار وادي ملوية (480 ك. م .) ؛ وقد تكثر مياهه في ابان الربيع عند ذوبان الثلوج ؛ ومنها ايضاً نهر اشلف الجزائري ومجردة التي ينصب ماؤها في الخليج التونسي

أما الأنهار الجنوبية فهي قليلة الفائدة ، تتجه الى الصحراء ، فتتغيب تحت رمالها الذهبية المترامية الأطراف أو تنصب في بحيرات منبثة هنا وهناك داخل البلاد كبحيرة الجريد الواقعة في جنوب تونس

ثم ان الكلام على توزيع المياه بالمغرب يحملنا طبعاً على الحديث عن امكانية هذه الأراضي المغربية من حيث استصلاحها للانتاج الزراعي ؛ والذي يجب اثباته ، قبل كل شيء ، هو ان هذه الأراضي فلاحية بالطبع ؛ فقد كانت منذ قديم الزمن تنتج الحبوب بكثرة والفواكه والخضر والأزهار ؛ وكانت

روما تعتمد عليها في تموين سكانها وامدادهم بالمواد الغذائية اللازمة ؛ وهذه الأرض كانت ولا تزال صالحة لتربية المواشي والدواب المسخرة للركوب أو المستعملة في الفلاحة ؛ أضف الى هذا انها غنية بالمواد الأولية كالصوف والجلد والمواد المعدنية مثل الفسفاط والنفط والنحاس والذهب والفضة والرصاص والفحم الحجري

وما قيل في الفلاحة يقال كذلك في الصناعة المغربية ؛ نعم ، ان سكان المغرب لا يقتصرون على الفلاحة ولكنهم يتعاطون - طلباً للرزق - كل الحرف كنسج الأقمشة الصوفية وغيرها وصناعة الأواني الطينية وصنع الآلات الحديدية والخشبية والمواد البنائية الى غير ذلك من الصنائع التي تتركز عليها حياة البلاد الاقتصادية

ومن حيث السكنى ونظام المعيشة نستطيع القول بأن سكان المغرب ينقسمون ، بطبيعة الحال ، الى بدويين ومدنيين ؛ وان كان عدد أهل البادية يفوق بكثير عدد أهل المدن أما القاطنون في البوادي فيشتغلون بزراعة الأرض وتربية المواشي ؛ وغني عن البيان ان حياة السكان موقوفة عليهم وذلك لأن البلاد فلاحية بالطبع ، كما أسلفنا ؛ والفلاحة كالصناعة قوام الحياة في كل بلد هو في طريق النمو ؛ أما أهل المدن فيميلون بنوع خاص ، الى التجارة والصناعة والمهن العقلية التي يزاولونها في مختلف الادارات والدواوين .

ومدن المغرب عديدة أهمها من الوجهة التاريخية بالمغرب الأقصى فاس، عاصمة العلم والعرفان التي أسست سنة 192 هـ؛ فقصدها عدد وافر من أهالي الاندلس والقيروان؛ ولم تزل تعظم وتتسع منذ ذلك الحين. أما السر في ذلك النمو العجيب فيرجع من غير شك الى موقع هذه المدينة في مفرق الطرق



المؤدية، من جهة، الى طنجة وساحل الاطلنطيك والجنوب المراكشي، ومن جهة أخرى، الى تلمسان والقيروان عن طريق ممر تازة؛ ثم نذكر من بين مدن المغرب الأقصى مراكش الحمراء - مهد الدولة المرابطية - وسبتة وطنجة، وقد لعبت كل منهما دوراً خطيراً في عهد الوندال وأيام الدولة الاسلامية الزاهرة

أما مدن المغرب الأوسط فنذكر من بينها تلمسان (Pomaria) والجزائر (Icozium) العاصمتين الرومانيتين الشهيرتين، وقرطاجنة (Carthaga) في المغرب الأدنى، ذات التاريخ المجيد؛ ثم القيروان عاصمة الاسلام الأولى بهذه

الديار ؛ وقد أسست على يد عقبة بن نافع الفهري الذي اتخذها مقراً لقيادته العسكرية وجعل منها مركزاً للديانة الإسلامية . أما مدن المغرب الحديثة أو الشبيهة بالحديثة فهي من الغرب إلى الشرق الرباط ، العاصمة الإدارية للمغرب الأقصى والدار البيضاء ، العاصمة التجارية الكبرى (1) ثم وهران ، الميناء التجاري الجزائري المشهور ، فمدينة قسنطينة ذات المناظر الطبيعية الرائعة والماضي المجيد ؛ ثم تونس .

وقد كانت معظم هذه المدن القديمة تعيش في الماضي السحيق بمعزل عن بقية البلاد ، ولم تكن تشارك - على الأصح - في حياتها المادية الا مشاركة ضئيلة ؛ والسبب في ذلك يرجع ، على حد تعبير المؤرخين أنفسهم ، الى تعدد أسباب المواصلات في الزمان القديم ، فالمغرب الأقصى - مثلاً - وان كان في استطاعته أن يلعب دوراً مهماً في تاريخ الأمم المتمدنة القديمة - نظراً لحسن موقعه بالنسبة للبلاد الأوربية ويشارك بنوع خاص في الحياة الاقتصادية المغربية - إلا انه ظل منعزلاً عن تلك الحياة ، بعيداً عنها لا يشارك فيها إلا بمقدار . والعلة في هذه الظاهرة الاقتصادية الغريبة تعود إلى وجود المغرب الأقصى محصوراً بين جبال الأطلس والصحراء والأندلس ، بحيث يمكن اعتباره انه كان مفصولاً من الناحية

(1) ليس من البعيد ، عقب الحرب العالمية الثانية ان تلعب مدينة الدار البيضاء دوراً خطيراً في حياة المغرب الاقتصادية نظراً لموقعها المناسب على شاطئ الأطلسين اي بين افريقيا وامريكا .

الجغرافية عن بقية المغرب من جهة والقارة الأوربية من جهة
أخرى ؛ فأدت به هذه الحالة الجغرافية الخاصة الى العزلة
والانكماش على نفسه



كتلة من الصخور والأحجار بالقرب من نعيمة (ناحية
وجدة) تمثل طائفة من المدعوين في طريقهم الى وليمة
عرس (La Noce Pétrifiée)

ولقد لعبت جبال الأطلس بنوع خاص دوراً مهماً في حياة
المغرب سواء من الناحية الاقتصادية ، أم من الناحية
السياسية ؛ حتى ان الرومان - رغم مهارتهم - لم يتمكنوا
من ربط العلاقات ربطاً متواصلاً بين منطقتي طنجة وتلمسان ؛
وذلك راجع كله الى وقوع جبال الأطلس سداً منيعاً في وسط
البلاد . وهكذا ستلعب تلك الجبال ، مرة أخرى ، دورها

المعتاد - على اثر انسحاب العبيدين من المغرب - فتحول ،
أي جبال الأطلس نفسها ، دون رغبة بني هلال الرامية الى
اقتحام المغرب الأقصى والاستيلاء عليه

أما اليوم فقد 'قضي على الحواجز الطبيعية ، وكثرت
الطرق في البلاد مخترقة اياها من الشرق الى الغرب وبالعكس ؛
وتعددت السكك الحديدية العريضة وانتشر الأمن في جميع
أنحاء هذه البلاد فلا شك من ان ابناءها - وقد توفرت
لديهم أسباب العمل المثمر - سيقطعون بها شيئاً فشيئاً مراحل بعيدة
من طريق التقدم المادي والازدهار الاقتصادي والاجتماعي

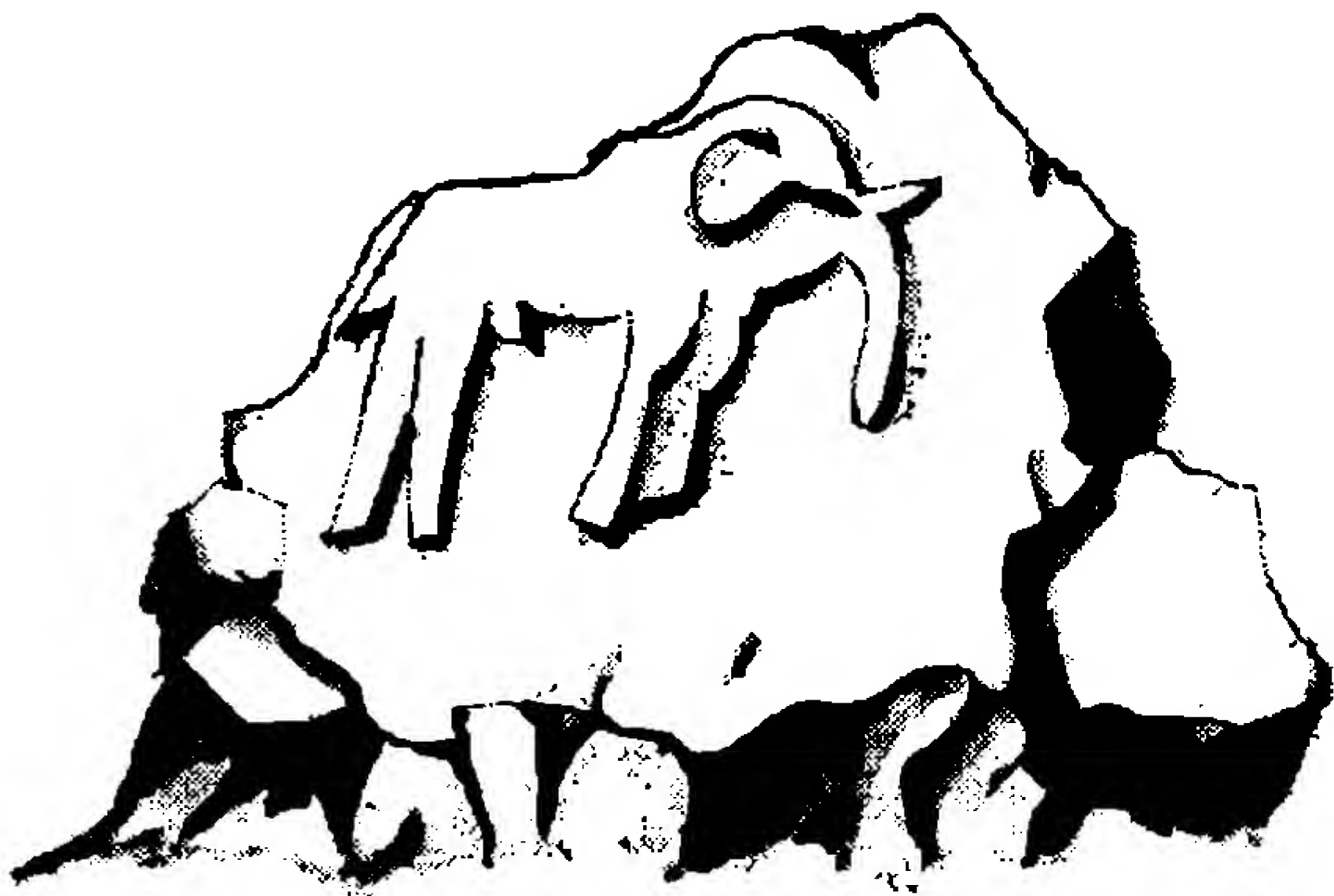
الفصل الثاني

سكان افريقيا الشمالية الأقدمون

صورة البلاد القديمة - المغرب في العصر الحجري -
سكان المغرب الأقدمون - صنوف البربر ومميزاتهم -
حياتهم الادبية والفنية - القبائل البربرية الشهيرة

يخبرنا علماء الجغرافيا والجيولوجيا ان شكل البلاد المغربية هي أيامنا هذه مخالف لما كانت عليه في الزمن القديم ، بمعنى ان افريقيا الشمالية كانت متصلة باسبانيا من الناحية الشمالية ، بحيث لم يكن هناك وجود لبوغاز جبل طارق؛ وكان البحر المحيط - على حد تعبير المؤرخين المذكورين - ممتداً الى ناحية تازة ، بل الى مصب نهر ملوية ؛ ويعتلون هذه الأقوال بأنهم عثروا في تلك النواحي على بقايا حيوانات لا تعيش الا في البحر .

والواقع انه ليس لدينا في الوقت الحاضر معلومات تاريخية مفصلة عن احوال البلاد في العصور القديمة ، بل نستطيع أن نقول ان معلوماتنا عن الشمال الافريقي في الزمن الذي يقع قبل التاريخ ضئيلة لا تسمن ولا تغني من جوع ، وذلك لعدم تدوين أخبار السلف . على ان طائفة من الباحثين عثروا أثناء تجولاتهم الاستطلاعية العلمية في هذه البلاد على بعض الأدوات الحجرية والصخور المنقوشة التي تبرهن بكيفية ثابتة على أن أهل العصر الحجري - وهم



صخرة منقوشة تمثل فيلاد عثر عليها بناحية فجيغ وهي من نقش سكان المغرب الأولين .

سكان المغرب الأولين - كانوا يتمتعون بحضارة بسيطة ، واستنتج علماء الجيولوجيا من أبحاثهم حول الحجارة المذكورة معلومات تتعلق بأحوال معيشة هؤلاء القوم الأولين الذين

أصبحنا نعلم أشياء عن عوائدهم ونظمهم الاجتماعية من ذلك ان أهل العصر الحجري كانوا يسكنون الكهوف ويقتاتون من لحوم الحيوانات الكاسرة التي كانوا يتغلبون عليها فلما تمدنوا قليلاً اتخذوا آلات من عظام تلك الحيوانات وملابس من جلودها ؛ ثم جعلوا ينضجون مأكولاتهم على النار التي كانوا يعتبرونها - أول الأمر - خطراً داهماً على حياتهم وبعد حقبة طويلة من الزمن جعل الشعور الديني يتسرب قليلاً الى صدورهم ، في شيء من الغموض والابهام ، فنصبوا اذ ذاك في بعض الأماكن صخوراً عظيمة يعبدونها من دون الله كالتي تشاهد اليوم في ناحية بني مطير وبني ازناسن بالمغرب الأقصى ، أو كالتي توجد حتى الآن في شبه جزيرة بريطانيا الفرنسية والمعبر عنها بكلمتي (Dolmens et Menhirs).

أما فيما يرجع لحقيقة سكان المغرب الاولين فقد اجمع المؤرخون على بكرة أبيهم ان العنصر الاول الذي استوطن هذه البلاد يتألف من البربر ، وفي أصل هذه الكلمة يقول عبد الرحمن بن خلدون « ان العرب لما وفدوا على هذه البلاد وسمعوا لهجة أهلها الغربية صاحوا قائلين ما هذه البربرة ، يريدون الرطانة ؛ فسموا بالبربر » ويعتقد الم بارتيني انها مأخوذة من كلمة « بارباري » اللاتينية التي كان الرومان يطلقونها على كافة الشعوب القديمة باستثناء اليونان والرومان .

وكيفما كان الامر فقد اجتهد المؤرخون في اثبات وطن
البربر الاصلي غير ان آراءهم في هذا الباب ظلت متباينة
فمن قائل انهم جاءوا من أوربا ؛ ومن زاعم انهم قدموا من
الصحراء والبلاد العربية ؛ ومن جملة هؤلاء فيلسوف المؤرخين
عبد الرحمن بن خلدون الذي يقول : « ان هؤلاء البربر قدموا
من جنوب جزيرة العرب وان جدهم الأول يدعى مازيغ » .
وهي نتيجة مقبولة رجحها علماء كثيرون بحجة ان الشبه
موجود بين الساميين وبرابرة افريقيا الشمالية لا فيما يتعلق
بالبنية فحسب بل فيما يخص اللغة ايضاً ؛ في حين انه
لا سبيل الى اثبات الشبه المذكور بين البربر من جهة واحدة
الامم الاوربيه من جهة أخرى واذن فلا بد من أن يكون
البربر قد أتوا الى المغرب من آسيا ؛ فانتشروا في هذه
البلاد واستوطنوها الى أن أغار عليها العرب ؛ فتخلوا اذ ذاك
عن طباعهم ووثنياتهم وتدينوا بدين الفاتحين وتطبعوا
بطباعهم

هذا وينقسم البربر من حيث الخلقة الى صنفين مختلفين
فالنوع الاول معروف بلونه الاسمر وشعره الاسود ورأسه
المستدير ؛ وهو بارز الخدين ؛ أنفه قصير وجبهته مقوسة
وهذه الصفات توجد في أهالي اسبانيا وايطاليا وجنوب
فرنسا الغربية .



صخرة عظيمة نصبها أهل العصر الحجري بالمغرب ليعبدوها

أما النوع الثاني الذي ينتسب إليه بالأخص سكان الريف بالمغرب الأقصى وأهالي جبال جرجرة بالمغرب الأوسط (الجزائر) فهو أشقر الشعر ، أزرق العينين ، مستطيل الرأس ، رقيق الأنف والشفتين ، مسطح الجبهة وهو أقدم العنصرين في هذه البلاد - على حد قول المؤرخين - إلا أنه قليل العدد بالنسبة للنوع الأول الذي هو منتشر في كافة أنحاء الشمال الأفريقي وللبرابرة شيم عالية منها حبهم للوطن والحرية المطلقة التي شبوا عليها منذ نعومة أظفارهم ؛ ومن أجل ذلك تراهم يسمعون بكل ما لديهم من وسائل وراء المحافظة على كيان القبيلة وضمان استقلالها. والبربري - فضلاً عن ذلك - شجاع بالطبع يحب الخوض في ساحات القتال كما أنه معروف بالتعصب لقبيلته وأهله ومن يدري ؟ فلعل هذا التعصب المتطرف أحياناً كان من بين الأسباب التي عاقت البلاد دون

تحقيق رغبتها والحصول على وحدتها السياسية المنشودة في ذلك العصر القديم...؟



والبربري - بالإضافة الى ما ذكر - شديد المحافظة على عوائده الموروثة واخلاقه ولغته ؛ وأوضح دليل على ما نزع من ان الرومان - وان كانوا قد استعمروا هذه البلاد مدة من الدهر لا تقل عن خمسة قرون - الا انهم لم يتمكنوا من القضاء على عوائد أهلها ، ولا على لغتهم التي لم تتغير

رأس شاب بربري
كما يراه نحات قديم

ولم تتبدل عبر القصور مهما الأحداث التي طرأت على البلاد. ثم ان البربري نشيط ، لا يعرف للكسل معنى ، يتعاطى الزراعة ويشغل بتربية المواشي ؛ وفي كلتا الحالتين يعيش عيشة بسيطة اذ يكفي بالقليل من القوت ولا يرتدي الا ملابس الصوف او الوبر ؛ مسكنه بيت من الطين والحجر او خيمة نسجت من الصوف وشعر النياق ؛ أو هو عبارة عن كوخ بسيط جداً يتخذ من القصب وأغصان الشجر المزوجة بالوحل^(١)

(١) قرطاجنة في أربعة عصور لاجد قوفيق المدني ص ١٤ .

على أن هناك طائفة من البربر تعيش على ساحل البحر أو بالقرب منه قد اختلطوا منذ أقدم العصور بالأجانب الذين كانوا يجوبون البحار ؛ فأخذوا عنهم أشياء من الحضارة القديمة - تبعاً لذلك الاختلاط والاحتكاك - وتفننوا بعض الشيء في بناء المنازل وصنع الملابس ؛ بل منهم من كان يتعاطى التجارة وفن الصناعة ، لكن أغرب ما في الأمر انهم لم يبرهنوا على مقدرة خاصة في شؤون الملاحة ولا سيما منهم أولئك الذين كانوا يعيشون على ساحل الاطلنتيك ، والمظنون ان السبب في ذلك يرجع الى قلة المرافئ الطبيعية بالساحل المغربي واضطراب البحر الابيض المتوسط بصورة دائمة

أضف الى هذا ان البرابر لا يحبون حياة العزلة والانفراد ، بل يعيشون جماعات وقبائل - شأن العرب في الجاهلية - وتمتاز كل قبيلة باتحاد أفرادها وتعصبهم بعضهم لبعض ، كما كان العرب في القديم ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً

أما مصالح القبيلة فيكونها دائماً الى رئيس يشترطون فيه عدة مزايا كالشجاعة والقوة ، والكرم والحلم ، وغيرها من الخصال الحميدة التي تجعله أهلاً لذلك المنصب وتمكنه من الدفاع عن مصالح القبيلة الحيوية والحفاظة عليها بكل وسيلة ممكنة . هذا ، ويحسن بنا في نهاية هذا البحث ان نتساءل عما اذا كان للبربر آداب تستحق الدرس والاهتمام كسائر الآداب

العربية والاجنبية ، أو بعبارة أخرى ، فنحن نسأل هل يوجد بين البرابر علماء وفلاسفة وكتاب وأدباء يمثلون اللغة البربرية كأولئك الذين خلد التاريخ أسماءهم لما أتحفونا به من أبحاث أدبية ولغوية وقطع شعرية رائعة ؟ نقول ان المتتبع للحياة الادبية والاجتماعية عند البربر لا يسهه الا ان يعترف



حصاد مغربي

بعدم وجود آداب بربرية بالمعنى الصحيح ، ذلك أن اللهجات البربرية على اختلافها سواء منها الشلحة أو الزناتية أو المزابية أو الزناقية وغيرها لا يتسع صدرها لقبول الافكار العالية ولا يستطيع المتكلمون بها التعبير عن الحقائق العلمية الدقيقة بتلك اللهجات نعم اهتم البرابر نوعاً ما بالأدب الديني ، فكتبوا فيه ما شاء لهم أن يكتبوا ، ومن جملة مصنفاتهم في هذا الباب كتاب « حميم المفترى » كما انه توجد ترجمة

للقرآن الكريم باللهجة البربرية من وضع المهدي بن تومرت⁽¹⁾ ومع هذا كله فللبربر ولع خاص بفن الملاحم ، وهي كثيرة الشبه بتلك المقطوعات الأدبية التي كتبت في فرنسا أثناء القرون الوسطى والتي تعرف في الأدب الفرنسي « بأغاني الوقائع » (Chansons de Gestes) ، ومن تلك الملاحم البربرية المشهورة قصيدة بالشلحة للصابي⁽²⁾ وهي عبارة عن ملحمة كتبها الصابي بالحروف العربية ليحدثنا عن قصة شاب طوحت به الاقدار حتى نزل الى جهنم ، يبحث فيها عن أبويه ويعمل على ان ينجيها من عذاب السعير



كوخ بربري بسيط

وهناك أنواع أخرى من الأدب البربري أعظم شهرة من

(1) تعتبر هذه الترجمة ضائعة

(2) راجع دائرة المعارف الفرنسية مادة « بربر »

التي سبقت الإشارة إليها في الحكايات والألغاز والأمثال على
ألسنة الحيوان ، وقد توارثتها القبائل البربرية خلفاً عن سلف
واعارثها أهمية كبرى ، غير ان الحكايات قليلة بالنسبة
للأقاصيص والفكاهات العريضة ، ذلك لان اللغة البربرية
صلبة ، ليست من الرقة والحلاوة بحيث تسمح لصاحبها
بتنميق الحكايات وزخرفتها ومهما نسينا فلا ننس تلك
الاغاني البربرية المنتشرة في البلاد الافريقية جميعها ، فهي من
المقطوعات الغنائية الحلوة التي لا تكلف فيها ولا تصنع ،
تنبعث من أعماق الفؤاد معبرة عما يختلج في صدر المرأة
والرجل على السواء من عواطف مختلفة رقيقة في كثير من
الأحيان

أما الفنون الجميلة فللبربري وللبربرية بنوع خاص حظ
وافر منها فهي تبدي مواهب فنية حقيقية في تزويق الزرابي
والملابس التي تحيكها بنفسها والأواني الطينية التي تصنعها
بيديها ، الأمر الذي يعطي الدليل القاطع على نشاطها المتزايد
وذوقها السليم

والمرأة البربرية ، من جهة أخرى ، شديدة الاعتناء
بخلقها ، حريصة على تمسكها باستخدام كل وسائل التجميل
حتى انك لتراها تتحمل آلام الوشم وتصبر على حمل الجواهر
الثقيلة في سبيل ذلك ، غير شاكية ولا متبرمة !



بساط بربری يشهد لصاحبه بسلامة
النوق وجودة الصناعة

على ان هذا الوشم لم يكن المراد به - أول الامر -
التجمل والتزين في حد ذاتها ، وانما كانت القبيلة تتخذ
كالعلامة تتميز به عن سائر القبائل الأخرى ، حتى أصبح
لكل قبيلة وشمها الخاص ومعلوم لدينا ان البرابر أثناء
غزواتهم الظافرة لم يكونوا ليكتفوا بالفوز والانتصار على
العدو ، وانما كانوا ينتهزون الفرصة للاستيلاء على كل ما كان
يقع تحت أيديهم من أسلحة ومتاع ونساء ... ويروى بهذا
الصدد ان أفراد القبيلة المغلوبة تمكنوا غير ما مرة - بفضل
ذلك الوشم (1) - من استرداد نسائهم اللواتي وقعن في قبضة
العدو ، وكلما ساعدتهم الحظ وأبرقت لهم بارقة الانتصار (2)

هذا ولن نختتم هذا الفصل دون أن نقول كلمة عن
أشهر القبائل البربرية ، وهي تنقسم الى ثلاث قبائل كبرى
هي مصمودة وصنهاجة وزناتة أما الأستاذ فوتي فان
يقول ما نصه في حديثه عن القبائل البربرية « بل قبائلهم
الرئيسية اثنتان قبيلة زناتة المسماة أيضاً بالبطر ، وهم أهل
بادية ، وقبيلة صنهاجة ، وصنهاجة هؤلاء كانوا يعيشون في
المدن والقرى ويسمونهم بالبرانس » والى هاتين القبيلتين

(1) وكان ذلك الوشم يكسو النساء البربريات أحياناً من أعلى رؤوسهن الى
أخص قدميهن .

(2) من مقال ظهر في جريدة « طام » الفرنسية في هذا الموضوع بقلم الآنسة
ماريز بريال (Maryse Pèriale)

تنتمي سائر القبائل الصغيرة الأخرى ومنها قومية وقالبة
ومكناسة وجزولة وغمارة وغيرها وغيرها

أما زناتة فعاصمتهم تلمسان ، ولهم أيضاً مدينة طاهرت ،
وأما أشير وبجاية وقلعة بني حماد فهي من عواصم الصنهاجيين
الذائعة الصيت يضاف الى هذا ان قبيلتي صنهاجة وزناتة
مشهورتان جداً في هذه البلاد ، أولاً ، بسبب العداوة الطبيعية
التي كانت تكنها كل منها للأخرى ، ثانياً ، من أجل الدور
السياسي الذي لعبته كل من القبيلتين المذكورتين أثناء الحروب
الطاحنة التي اشتعلت نيرانها في القرن العاشر الميلادي بين
الفاطميين ، من جهة ، والمروانيين من جهة أخرى ، فكان
ان انتهت - كما هو معلوم - باندحار العبيديين واضمحلال
سلطانهم من افريقيا الشمالية بصورة نهائية

العصر الحجري بالمغرب

كان رجال هذا العصر الحجري . يسكنون الكهوف والمغاور ، وبها يدفنون ، وتثنى عند الدفن أرجلهم والمظنون ان نظام العائلة قد دخل بلاد البربر نحو خمسة قرون قبل المسيح (بعد انتصاب الجالية الفينيقية بمراكز الساحل المغربي) ، ولأب السلطة المطلقة في العائلة

وكانت هذه الجموع الأولية تعتقد في السحر ، ولها أعمال كهنوتية سحرية تقوم بها ، وكانت تعتقد ان الأفعى والقردة والكبش ذا القرون الكبيرة حيوانات مقدسة أما طعامها فكانت تأكل لحوم الوحوش ونخاعها وحشرات البر والبحر وأثمار الأشجار وبعض الجذور والأعشاب

ولم يكن الطقس في هاتيك العصور يخالف مخالفة محسوسة حالة الطقس اليوم ، انما كان يمتاز على الطقس الحاضر بكثرة الرطوبة ، ولقد كانت البلاد ذات غابات وأحراش هائلة ،

وقع تحطيمها شيئاً فشيئاً سواء بداعي الضرورة الفلاحية أو بداعي الحروب أو غير ذلك (١).

وكانت الحيوانات الكبيرة كالفيلة ووحيد القرن والنعام وغيرها موجودة بهذه البلاد ، إلا أنها فقدت منها شيئاً فشيئاً ، وكذلك كانت الحيوانات الكاسرة كالأسود والنمور والبر تفتك بالإنسان والماشية فتكاً ذريعاً أما البقر والغنم والمعز والحمر فالمظنون أنها قدمت من مصر .

وكانت تربية المواشي هي الثروة الوحيدة لأولئك السكان الأقدمين ، لكن الأعمال الزراعية لم تكن مفقودة بالمرّة . والفول معروف في البلاد منذ أقدم العصور ، ولعله أقدم نبات مغذ استعمل بها ، ولم يأت من الخارج وكذلك عرف القمح بها في عصر الحجارة والزياتين والكروم الوحشية ، ومعلومات هؤلاء القوم الزراعية وردت لهم من مصر أيضاً .

ونظن ان البربر عند قدومهم من المشرق لهذه البلاد هم

(١) وقع ذلك بالخصوص أثناء الحملة التي شنتها الجحافل الوندالية على افريقيا الشمالية أثناء القرن الخامس الميلادي (أنظر صحيفة 99) .

الذين أكلوا بكل ما ورد من مصر سواء من الحيوانات أو من
المعلومات الابتدائية

عن « قرطاجنة في أربعة عصور »
تأليف أحمد توفيق المدني (ص 16 و 17)



الفصل الثالث

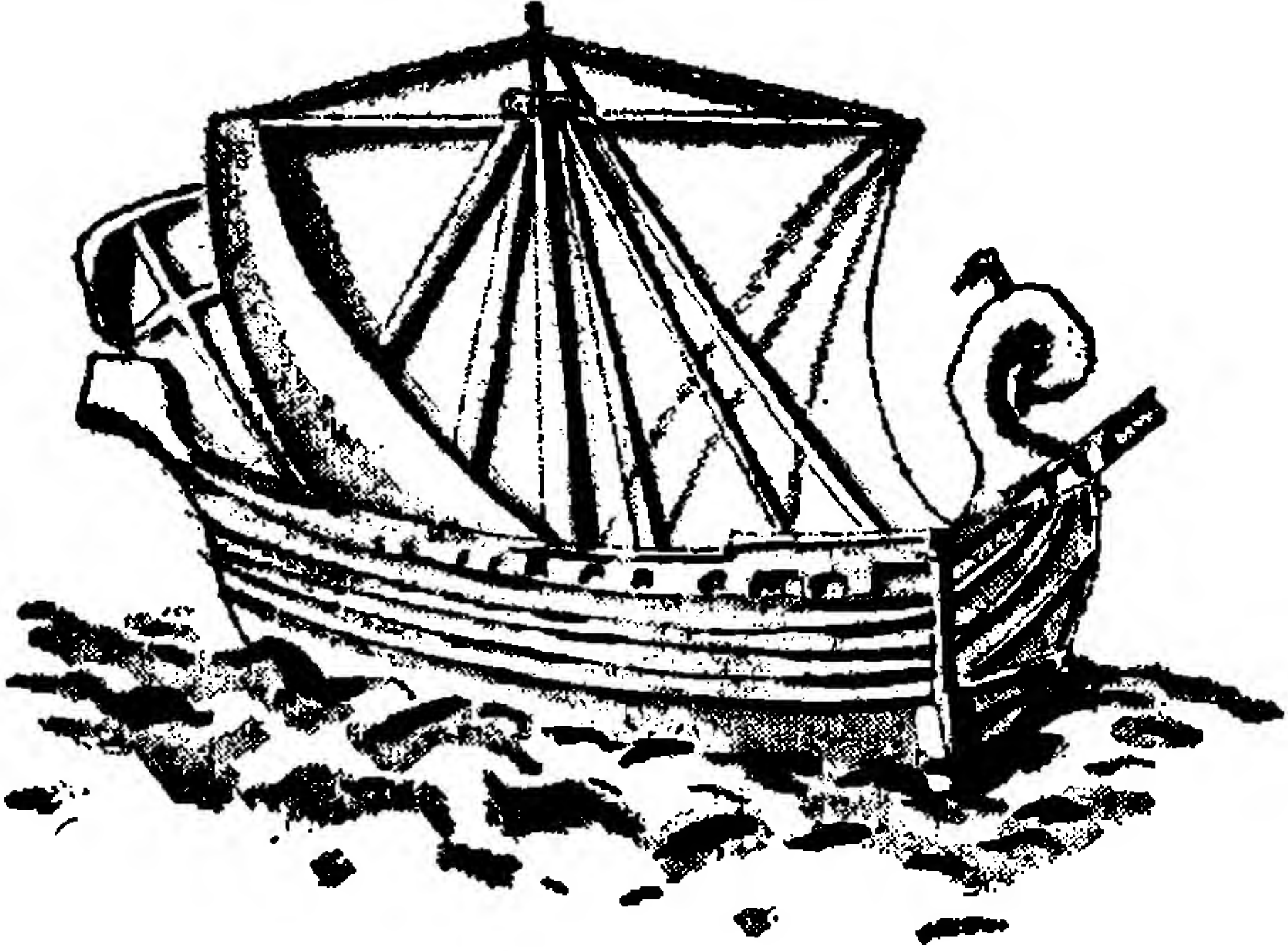
عصر الفينيقيين

كلمة عن الفينيقيين - تأسيس قرطاجنة - مميزات
القرطاجنيين ونظمهم الادارية - سياسة قرطاجنة
الأهلية تأثير قرطاجنة في سكان هذه البلاد - تصادم
قرطاجنة مع القوة الرومانية

تضاربت الآراء في حقيقة أمر الفينيقيين ومسقط رأسهم
وتأثيرهم في الأمم الساكنة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط
وتأثيرهم هم الآخرين بعادات تلك الأمم وأخلاقها، على أن هناك
أمراً كاد أن يتفق عليه المؤرخون هو أن الفينيقيين قوم كانوا
يسكنون الأراضي الواقعة بين ساحل البحر الأبيض المتوسط
الشرقي وجبال لبنان، في بقعة خاصة اسمها « فينيقية » .

وكانت عاصمتهم « صور » القديمة التي عرفت بمئات السنين. قبل المسيح ، بثروتها العظيمة ونظامها الإداري المحكم ، وقد افتن الفينيقيون بالتجارة منذ قديم الزمن طمعاً وراء جمع الأموال والحصول على الأرباح الطائلة ولأجل هذه الغاية أقاموا لهم أسطولاً هائلاً جعلت وحداته التجارية تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط حتى أصبحت لهم فيه السلطة المطلقة كما كانت انكلترا ما قبل الحرب العالمية الثانية تعتبر سيدة البحار بفضل أساطيلها العتيدة ، ثم جعل الفينيقيون يهجرون عاصمتهم صور التي لقبت بلندن القديمة وينشئون المستودعات التجارية (Comptoirs) في البلاد الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، فقامت من ثم مدن عدة أشهرها تونس (Tunis) وسوسة (Hadrumete) وبنزرت (Hyppo Diarrhytus) وعنابة (Hippone) ومليبية (Rusaddir) وطنجة (Tingis) والعرائش (Lixus) والمهدية (Thimiaterion) والصويرة (Coricon Teichos) وغيرها، وكلها مدن تجارية كانت تمتاز بحركة زائدة ونشاط ظاهر في إبرام مختلف المعاملات التجارية ومعنى تلك المعاملات ان الفينيقيين كانوا يعرضون على الأهالي منتوجاتهم الخاصة كالأقمشة والأسلحة والأواني الطينية وغيرها ويأخذون مكانها الصوف والجلد والعاج والأنعام والعبيد وهذه الطريقة المبنية على تبادل المنتوجات جعلت الفينيقيين ، مدة طويلة ، في غنى عن استعمال القطع النقدية ، على انه لما اتسع نطاق.

تلك المعاملات التجارية اضطروا الى ضرب النقود، واخترعوا



سفينة فينيقية

الحروف الهجائية الأولى ، فأخذتها عنهم الأمم الأخرى كاللاتينيين واليونانيين .

ولقد كان هذان الحادثنان في تاريخ التمدن الفينيقي من أهم الأسباب التي مهدت لهم السبيل لعقد العلاقات التجارية والأدبية مع الأمم الأجنبية ولا سيما المغربية منها

ومما يؤخذ على الفينيقيين انهم كانوا يعبدون الأوثان ويضحون بأولادهم عند الضرورة ، في سبيل إرضاء آلهتهم المتعددة واستمطار رحمتهم

بعد هذا العرض الحثيف لأحوال الفينيقيين العامة وجب أن نتعرض في شيء من التفصيل الى الأسباب التي دعت إلى إنشاء أعظم مستعمرة فينيقية في شمال افريقيا ، ألا وهي قرطاجنة العاصمة الشهيرة . وما ينبغي ذكره - قبل كل شيء في هذا المقام - اختلاف المؤرخين في تحديد التاريخ الذي



فِينِيقِيَّةَ وَالسَّيْرُوتَاتِ، لِيُتَسَمَّى الْفِينِيقِيُّونَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْبَيْضِ الْمَتَوَسِّطِ

تأسست فيه هذه العاصمة، وإن نحن احتفظنا بسنة 883 ق.م. حسبما يذهب إلى ذلك جمهور المؤرخين ، فإن هناك من يزعم أن تأسيس قرطاجنة لم يكن إلا في عام 813 ق م . ومهما يكن من أمر تأسيس العاصمة القرطاجنية القديمة فنحن ذاكرون لك - فيما بعد - الأسباب والظروف التي سبقت تأسيس هذه المدينة الشهيرة

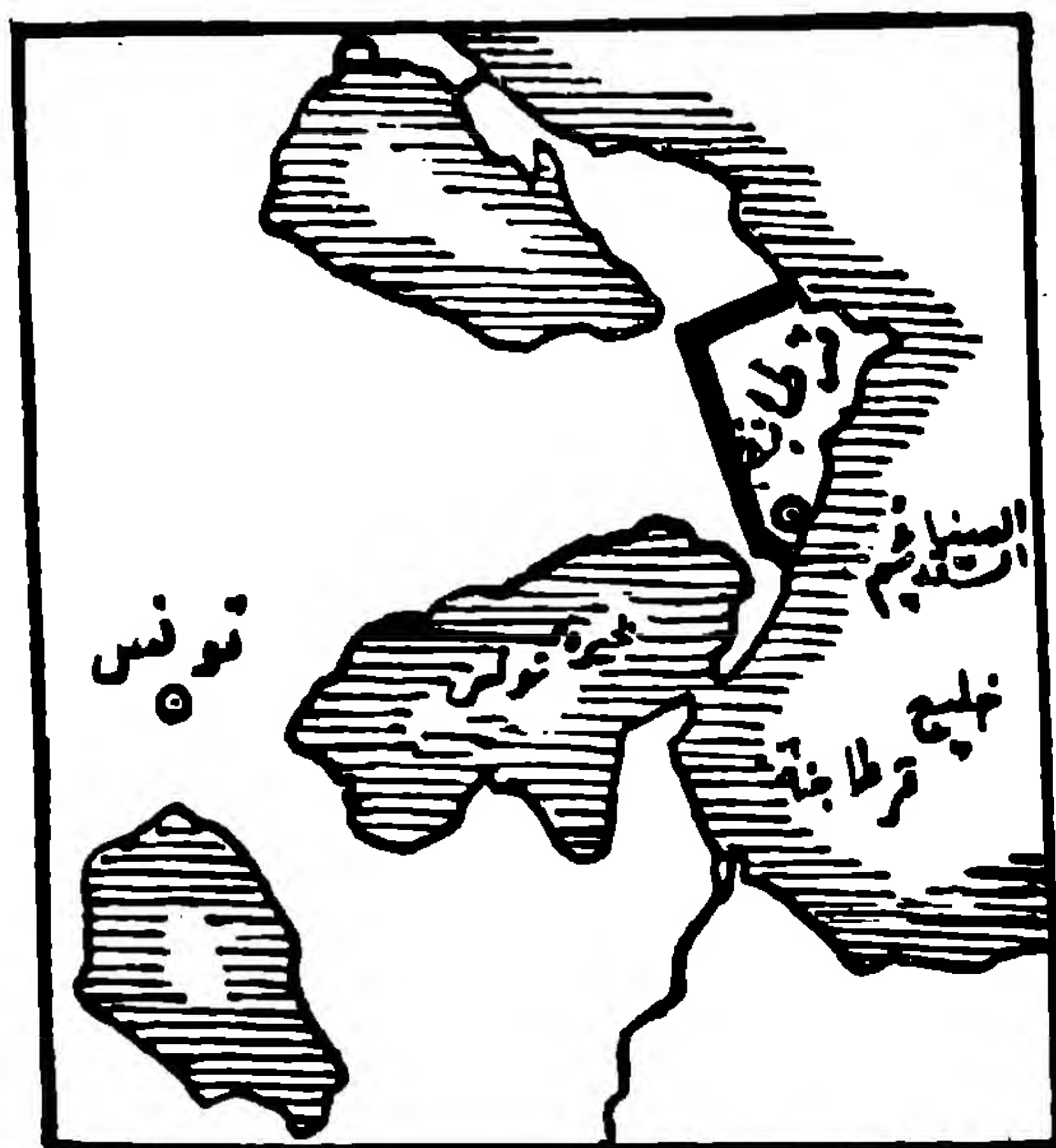
يسوق المؤرخون عادة روايات متعددة في الموضوع ، منها

أن جماعة من الفينيقيين هاجروا من مدينة صور (Tyr)
سنة 480 ق. م. وعلى رأسهم الأميرة عليشة (Elissa) ،
وقد فرت من سيطرة أخيها بيغماليون (Pygmalion)
حاكم بلادها المستبد الذي قتل زوجها لانتزاع الحكم من
يده ، ومنهم من يعتقد ان الجالية المذكورة لم تغادر مدينة
صور الا لأنها ضاقت بعدد سكانها المتزايد يوماً بعد يوم
وسواء أصبحت هذه الأسطورة المأخوذة عن الشاعر اللاتيني
فرجيل (Virgile) أم لم تصح ، فإن الأقدار حملت تلك
الجماعة من المهاجرين حتى ألقوا عصا التسيار بالساحل التونسي
وبنوا به مدينة سميت « قرطاجنة » بمعنى المدينة الجديدة
(Quart Hadacht) ، تلك المدينة الهائلة التي لا زالت
بعض أطلالها ماثلة للعيان الى حد الآن (١)

وترى أولئك المهاجرين الذين كانوا - أول الأمر -
ملازمين للحياة راكنين الى الدعة والسكون ، يهتمون بتنظيم
البعثات البحرية والرحلات التفقدية لبسط نفوذهم على سواحل

(١) ويقولون في التاريخ القديم ان الأميرة عليشة رغب في التزويج
منها ملك القبائل البربرية « أرياباص » صاحب البلاد التونسية غير انها كانت
ترغب في غيره ووقع ان تركها عشيقها ونزح عن البلاد فاغتتمت لذلك
عليشة ولم تر الا الموت يخلصها من موقفها الحرج فسدت السهم في صدرها
وقتلت نفسها بنفسها اما خوفاً من أن تسقط في يد ملك البربر أو غماً
وأسفاً على عشيقها الأول !

البحر الأبيض المتوسط والبحر المحيط ، وهذه رحلة واسعة
النطاق يسهرون على تنظيمها ويكلون أمر قيادتها إلى بحارة



قرطاجنة ومينائها القديم بالنسبة
لتونس حالياً

مهرة ، على رأسهم قائد محنك خير بالشؤون البحرية يدعى
« حانون » (Hannon) فيجوب حانون هذه السواحل
المغربية من أقصاها إلى أقصاها ماراً على أعمدة هرقل

(450 ق . م) ثم يرجع إلى قرطاجنة مزوداً بكية وافرة من المعلومات حول جغرافية بعض المناطق الافريقية وعوائد أهلها وكيفية معيشتهم

ولئن كان القرطاجيون يبدون نشاطاً كبيراً لتوسيع الرقعة التي احتلوها سابقاً ، فقد أصبح اليونانيون من جهتهم يجتهدون في بسط نفوذهم على الساحل الشمالي الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، ويشاء ربك أن يصطدموا ، طبعاً ، بقوة قرطاجنة الفتية ، فيقوم من ثم عراك عنيف بينهما يؤول فيه النصر نهائياً إلى أهل قرطاجنة

وترى مدينة قرطاجنة تمتد وتزدهر بسبب ذلك الانتصار أولاً ، ثم بفضل الوافدين عليها بكثرة من مدينة صور القديمة التي أصبح أمرها يضعف شيئاً فشيئاً منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي فتحت فيه أبوابها للقائد مجتصر الثاني (Nabuchodonosor 11) بعد حصار دام ثلاثة عشر عاماً بالضبط

ولما عظمت قرطاجنة وامتد نفوذها إلى أقصى بلاد المغرب ، فكرت في قطع العلاقات مع أم الوطن ، وأصبحت مستقلة بنفسها تعمل على تنظيم شؤونها الإدارية والسياسية ، محتفظة أشد ما يمكن بصفتها الشرقية القديمة .

ويمتاز أهل قرطاجنة بالمحافظة على لغتهم الوطنية وتقاليدهم المرعية وآلهتهم المتعددة التي ورثوها عن أجدادهم الفينيقيين، كما أنهم يمتازون بالمحافظة على كل ما من شأنه أن يذكرهم بحياتهم الشرقية الأولى أما مبادئهم فهي المبادئ المادية وقد تشبثوا بها إلى حد أن الحركة الفلسفية التي اشتهر بها اليونان لم تحرك فيهم ساكناً ، بل لم تؤثر فيهم بالمرّة بيد أنهم تأثروا بالفن المعماري اليوناني ، ذلك الفن الذي نجد أثره ظاهراً في المقابر والكنائس التي يرجع بناؤها إلى القرطاجنيين، كما يبدو جلياً في نوع الجواهر والأقمشة والأواني الطينية التي كانوا يستعملونها ، ومن الممكن أن نقول أن الفن القرطاجني كان خليطاً من فنين متباينين فيه من الفن اليوناني ، وفيه من الفن الفينيقي الذي أتوا به من بلاد الشرق

يستخلص حينئذ مما تقدم أن القرطاجنيين كانوا بمثابة همزة الوصل بين الشعوب المتعدنة القديمة كالمصريين واليونانيين والشعوب المتأخرة كالتّي كانت تسكن - إذ ذاك - في إفريقيا الشمالية

هذا ولسنا نعلم شيئاً كثيراً عن النظم التي اعتمدت عليها قرطاجنة في إدارة شؤونها السياسية ، إلا ما أفادنا به المؤرخ الشهير الم بارتيني الذي يقول في هذا الموضوع بالذات « كل ما نعلم عن تلك النظم أن قرطاجنة كانت تنتخب كل عام رئيسين للحكومة لمدة سنة واحدة وأعضاء مجلس الشيوخ

لمدة حياتهم ، وهم الذين كانت بيدهم مقاليد الأمور ، ولم يكن هذا المجلس يجتمع إلا عند وفاة أحد أعضائه ، فيقع تعيين من يخلفه ونعلم فوق ذلك ان قرطاجنة كانت تنتخب قائداً تسند إليه مقاليد الأمور العسكرية وتكلفه بقيادة الجيش القرطاجني ، ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد انه لم يكن في استطاعة أحد الرئيسين اللذين سبقت الإشارة إليهما أن يتخذ أي قرار إلا بموافقة زميله الآخر

أما وضع النصوص القانونية فكان أيضاً من خصائص الحاكمين المذكورين ، تساعدتهما على ذلك لجنة خاصة يعينها مجلس الشيوخ ، وكانت هذه التقارير ترفع بعد تحريرها للمجلس بقصد الموافقة عليها وأما الولاية - وهم الممثلون للحكومة المركزية في سائر المناطق المحتلة - فقد كانت الحكومة تختارهم غالباً من بين التجار والصناع ، أي من الطبقة البرجوازية الرأسمالية التي كثيراً ما كانت تقدم مصالحها الشخصية على مصالح الأمة ، فتعكر بمثل هذا العمل الشنيع صفو العلاقات بين الحكومة وعامة الشعب

والواقع ان علاقات قرطاجنة مع الأهالي كانت تجارية محضة في أول الأمر ، بمعنى ان قرطاجنة كانت متمسكة بالحياد ، لا تتدخل بوجه في شؤون البلاد ، بل تسهر على أن تكون العلاقات جـد حسنة بينها وبين السكان . ولكنها

سرعان ما تخلفت عن هذا الموقف الرزين ، وكأنها أرادت أن تلعب دوراً في ميدان السياسة الداخلية للبلاد ، فمالت إلى بعض رؤساء البربر الذين تمدهم بالأموال حتى تمكنت شيئاً فشيئاً من بسط سيطرتها على البلاد بأسرها وتمضي السنون تلو السنين ، ولم تلبث مملكة قرطاجنة – التي كانت ملكية أول الأمر – أن انقلبت إلى مملكة جمهورية ، لكن ليس هذا معناه ان الغاصبين ساروا في سكان البلاد سيرة لين وإشفاق ، بل المعروف عنهم أنهم كانوا يعاقبون الأهالي بقسوة وشدة على أتفه الأمور ، ويستخلصون منهم أنواع الضرائب ، كما كونوا منهم جنداً أعدوه للدفاع عن كيانهم حيناً ولصنع السفن حيناً آخر

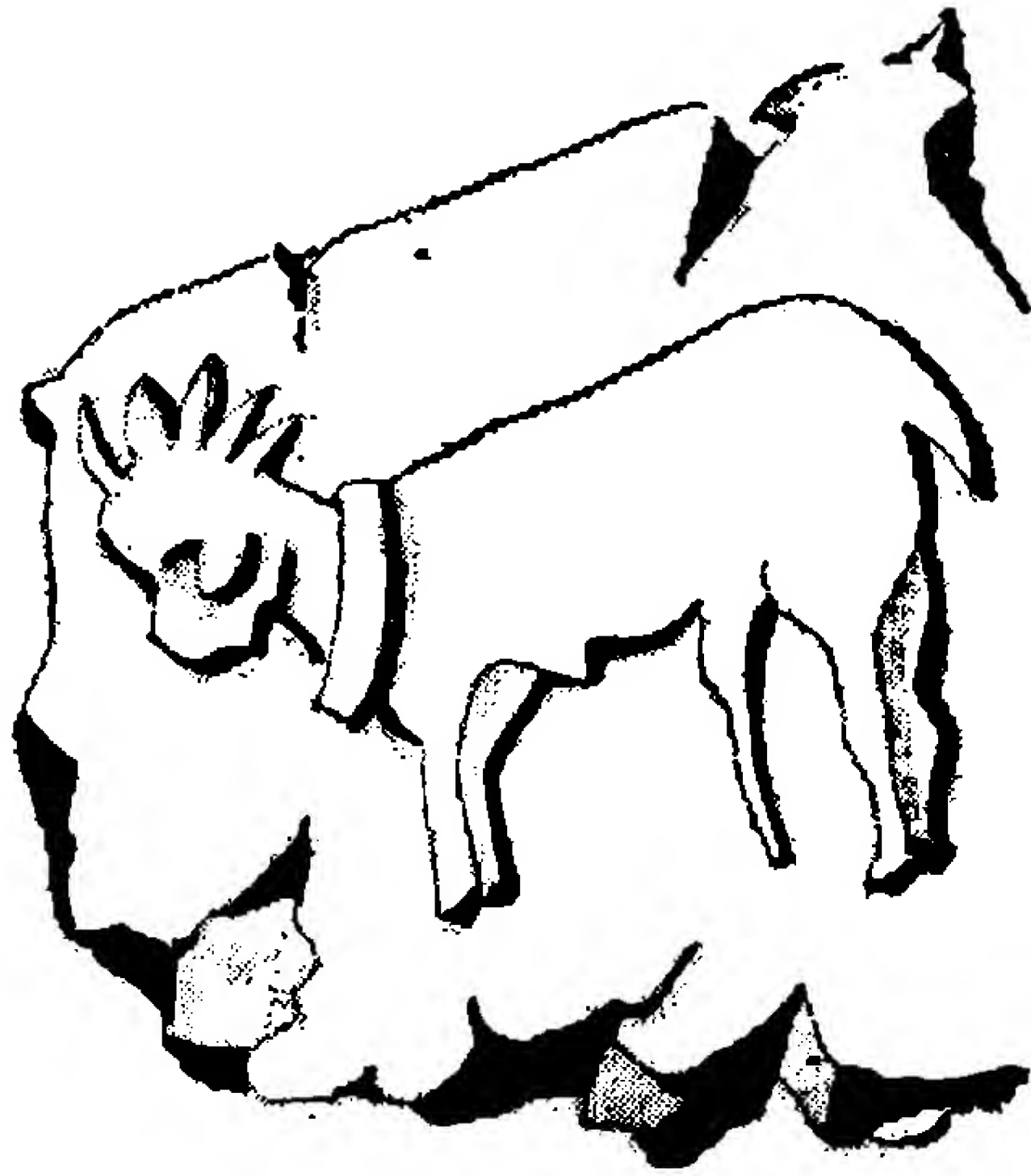
على أن تمسكنا بالحقيقة التاريخية يحملنا على القول بأن احتلال قرطاجنة لبلاد المغرب لم يكن كله شراً ووبالاً عليها ، بل لا بد من الاعتراف بأنه أفادها إفادة تذكر فالمعروف اليوم عن القرطاجنيين أنهم بشوا في رعاياهم البربر روح المدنية والعمران جاءوهم بالآلات الفلاحية التي أتقنوا صنعها وحملوهم على توجيه عنايتهم للفلاحة لا سيما فيما يرجع لغراسة الأشجار ، كما حملوهم على الاهتمام بتربية المواشي

والذي يعطي الدليل على ان نشاط القرطاجنيين كان بعيد الأثر في هذا الصدد ما قاله « أقستان برنار » من أن الرومان

أنفسهم نسجوا على منوال القرطاجنيين في الميدان الفلاحي ،
فترجموا الى اللاتينية كتاباً في الفلاحة كان قد ألفه أحد
القرطاجنيين اسمه « ماقون » (Magon) ، واستمدوا منه
كثيراً من المعلومات الخاصة بأساليب الفلاحة المثمرة القيمة
وقد نسج أهل المغرب على منوال القرطاجنيين في هذا المضمار
وعملوا على استثمار أراضيهم بصورة تبعث على الرضا
والاطمئنان

هذا ولم يحذ المغاربة حذو القرطاجنيين في الشؤون المادية
والاقتصادية فحسب ، بل اقتفوا آثارهم في سائر الميادين
الأخرى ، فأخذوا عنهم ما كانوا يتحلون به من أخلاق
وقلدوهم حتى في وثنيتهم ، فجعلوا يعبدون الكباش « عمون »
كما كان يعبد القرطاجنيون من قبلهم ، قلدوهم في كل
شيء وأخذوا عنهم كل شيء حتى كادت أن تبتلعهم
تلك الحياة الجديدة والواقع ان الحياة في المدن العظيمة
والقرى العامرة كقرطاجنة وقسنطينة وسطيف وغيرها كانت
راقية مزدهرة في تلك الأيام ، بحيث كثرت فيها البناءات
والأجنحة والقصور والملاعب ونفقت فيها سوق العلم والأدب...
وانتشر لسان القرطاجنيين القومي ، فأخذ عنهم البربر
بسهولة لا تستغرب اذا ما أعدنا إلى الأذهان مرة أخرى ان
البربر والقرطاجنيين من أرومة سامية واحدة وان الشبه

عظيم بينها لا فيما يتعلق بالبنية والعنصر بل فيما يرجع الى التفكير أيضاً.



الكبش الذي كان يعبد القرطاجنيون
والمغاربة في العصر القديم « صورة »
منحوتة اكتشفت بجبل زناكة « دائرة
فجيج »

وقد أثبت المؤرخون بالحجج القوية والبراهين القاطعة أن
القرطاجنيين من قبائل كنعان العربية التي رحلت الى افريقيا

الشمالية منذ ثلاثة آلاف عام

وفما يلي نسوق إليك برهاناً لغوياً على أن القرطاجنيين من أصل عربي وأن لغتهم لغة عربية ، أو كثيرة الشبه باللغة العربية ، وقد دخلت إلى إفريقيا مع الحملة الفينيقية الأولى (1) .

فإذا تذكرت أن البربر والقرطاجنيين من أرومة سامية ، يرجع أصلهم جميعاً إلى المشرق وثبت لديك - بناء على ما تقدم من البراهين التي لا تقبل الجدل أن القرطاجنيين من قبائل كنعان العربية وأن لغتهم هي اللغة العربية - عرفت لماذا أقبلت الطبقات البربرية على تعلم اللسان القرطاجني اقبالاً عظيماً ، وتبينت لك الأسباب التي ساعدت على انتشار العربية بسرعة كبيرة في بلاد المغرب بعد ما خضعت للمسلمين وهذا الذي حدا ببعض المؤرخين إلى التصريح بما يلي عند تناوله الكلام على سرعة اضمحلال اللغة اللاتينية من إفريقيا الشمالية فقال « لعل السبب في انتشار اللغة العربية في المغرب بمثل هذه السرعة واطمحلال اللاتينية منها يرجع إلى أن عدداً عظيماً من الأهالي في هذه البلاد كانوا

(1) أنظر جدول ص 50 - 51

يتخاطبون باللغة القرطاجنية (1) »

ومها يكن من انتشار لغة قرطاجنة بالمغرب وتعلق البربر بأذيال الحضارة القرطاجنية ، فانك تستطيع أن تلمس مقياساً لعظمة مدينة قرطاجنة في التقرير الذي بلغنا عن رحلة حانون الآنف الذكر فإذا ما بحثنا عن معرفة أسباب النجاح العظيم الذي أحرزته العاصمة القرطاجنية سواء من الناحية الاقتصادية والسياسية أم من الناحية الأدبية تبين لنا أن ذلك النجاح يرجع الى عوامل ثلاثة

أولاً - نشاط القرطاجنيين وقوة عزيمتهم

ثانياً - ضعف مدينة صور وتلاشي أمرها يوماً بعد يوم

ثالثاً - موقع قرطاجنة في مكان مناسب بين حوضي

البحر الأبيض المتوسط الشرقي والغربي على مقربة من جزيرة صقلية وسردينيا

وتمتع البربر والقرطاجنيون بمدنيتهم وأصبحت قرطاجنة

مسيطرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط بلا منازع الى ان

قامت الدولة الرومانية تبسط نفوذها على جزيرة ايطاليا

بأسرها ، ثم جعلت ترنو بعين الطمع الى تلك البقاع الواقعة

تحت سيطرة القرطاجنيين وأيقن الرومان انه لا بد من

(1) من كلام الفيلسوف المؤرخ الفرنسي الشهير رينان (Renan)

ويؤيده في هذه النظرية الصائبة المؤرخ قوتيني في كتابه العبقري

« جنصريق ملك الوندال » (ص 214)

الجلل الموجودة في العمود الأول من الجدول التالي مأخوذة من حفرية قرطاجنية اكتشفت في البرازيل بأمرىكا. يحسن بك ان تقارن كل جملة بها بالجمتين المقابلتين لها بالعامة أو لا بالعربية الفصحى ثانياً. فماذا تستنتج من هذه المقارنة؟

الجملة الفينيقية	مقابلها بالعامة العربي	مقابلها بالعربية الفصحى
------------------	------------------------	-------------------------

ها احنا بني كنعان م فر نم حقرة هنا حنا بني كنعان من فر انم حمل أوش حر حصل هك	هنا نحن بني كنعان من فر انم حملنا الاحتقار أليس حرام أن نحصل هكذا؟	هنا نحن بني كنعان من فر انم تحملنا الاحتقار أليس حرام أن نحصل هكذا؟
--	--	---

لا عنا أزيد حيا قنار في حيرم اناس تا بجو العلى كلوم	ما تزداد شي الحياة عندنا أكثر لن تزيد الحياة عندنا أكثر ان نابس البحر في الهم الحزن كلامهم	ما تزداد شي الحياة عندنا أكثر لن تزيد الحياة عندنا أكثر ان نابس البحر في الهم الحزن أكلهم
---	--	---

أو على كان ترى سنا تاسمة أو عشرة	والحزن كلن ترى السنة تسعة والحزن كلتن وهذه السنة هي التاسعة أو العاشرة	والحزن كلن ترى السنة تسعة والحزن كلتن وهذه السنة هي التاسعة أو العاشرة
----------------------------------	--	--

الحرامى ملك هنا عيب ولاح لا أوم	الملك الحرامى هنا لوح عيبه لاش ما هو شي مهم	الملك الحرامى هنا رمى بعيبه لماذا ليس هو مهم
---------------------------------	---	--

عفو الى دبر بهم شاجا أول الشمع	عرفوا اللي دبر بهم باش جسا	عرفوا أنه دبر بهم لكي يتوصل الى أول مناصب القضاء
--------------------------------	----------------------------	--

عما هنا ثا عشرة كي الحلي الحلي الحلي هنا عسيرة كيف الحلي الحلي هنا عسيرة فاذا أحسب
 حبي ما هي حر يجب الم يلقاه حار الحلي ماء وجدده حار
 أوستم سلم اش بر نار فينا ولو كان هذا بركة نصبر لكن لو كان هذا فقط لصبرنا لكن
 اش هذا البر النار تشعل فينا ما هذا البر النار تشعل فينا
 حامي أو البر هنا ما غير بعمل حامي البر هنا حام وما غير بعمل
 الذي أعاننا الذي أعاننا

حتى خبر الهون حتى خبر الهون لا يصلنا اي خبر الى هنا

راحلتهم السننا (فات عليهم رحلت عنهم السنة ومنهم عشرة
 العام) مع عشرة ماتوا ماتوا

بقينا ستاناس مبيوعين وانسا بقينا ستة أناس مباعين نقوم
 نفسو كيف مات عصبت العباد بالجراسة لا مات السبط أصاب
 هبنت عليه هبنت عليه العباد الاختبال عليه
 كسنا ست فاس مبايع راتاسو

كي مات عصبت عبد هبنت أي عليه
 قتلة الحزن كانت موته حناته قتله الحزن لكن موته كان
 حنانا الاهيا عليه اولو عالي كانت ايا حناته عليه

محاربة هؤلاء الأعداء إذا هم أرادوا العيش في ظل الحرية
والسيادة القومية فجعلوا يتحينون الفرصة لاشعال نار
الحرب بينهم وبين حكومة قرطاجنة ، تلك الحرب الهمجية
التي دامت أكثر من قرن والتي أسفرت عن انهزام
القرطاجنيين وتدمير مدينتهم الشهيرة



تقرير رحلة « حانون »

رأت الحكومة القرطاجنية ان ترسل احد قوادها المشهورين ، اسمه « حانون » ، الى ما وراء اعمدة هرقل ليختط هنالك مراكز يعمرها القرطاجنيون والافارقة على السواء... فأخذ حانون عدته للسفر وابتحر في ستين سفينة تحمل ثلاثين الف شخص مابين رجال ونساء ..

قال حانون

« خرجنا من الاعمدة وشرنا في البحر مدة يومين⁽¹⁾ وعندما أسسنا اول مركز منبسط كبير من السهول والوهاد وأطلقنا عليه اسم تياتريون⁽²⁾ وقصدنا على الاثر ناحية الغرب ، فوصلنا

(1) وكان السفر من قرطاجنة الى اعمدة هرقل - اي منها الى بوغاز جبل طارق - يتطلب سبعة ايام بلياليها ، هذا على شرط ان يكون البحر هادئاً مطمئناً (التعاليق كلها للمؤلف)

(2) هي المهدية وتقع على مقربة من القنيطرة بالمغرب الاقصى .

الى لسان من الارض اللوبية (1) تكتنفه الاشجار يدعى
بسولايس (2)

وهناك أسسنا معبداً لبوزيدون الاله (3) واتجهنا بعدئذ نحو
مشرق الشمس ، وبعد انقضاء يوم ، وصلنا الى بحيرة قرب
البحر نبت عليها قصب طويل وحولها ترعى فيلة جسيمة
العدد وكية جمّة من الحيوانات الاخرى

وغادرنا هذه البحيرة وسرنا يوماً ، فأسسنا على جانب
البحر عدداً من المراكز وهي تجدار ، كريان ، جتة ،
مليتة ، أرفيس (4) وبعد مغادرتنا لهذه النواحي وصلنا الى
مصب نهر اللكسوس (5) العظيم الذي اتخذ بداية مجراه من
لوبيا وعلى ضفافه ترعى سيامة أهل اللكسوس الرحالين، ولقد
توددنا اليهم كثيراً ومكثنا معهم زمناً ، وهناك قوم يدعون
الوتوبيون ، يعيشون على مقربة من مصب هذا النهر وهم
يقطنون ارضاً تخرقها جبال شامخة وبها الوحوش الضارية قد

(1) نسبة الى « ليبيا » .

(2) Soloeis

(3) ولعل ان هذا المبد كان بنفس المكان الذي يوجد به اليوم ضريح
« سيدي بو زيد » على بعد كيلومترات فقط من مدينة أسفى والمظنون ان
اسم « بو زيد » محرف عن « بو زيدون » القرطاجني .

(4) أسست هذه المستودعات كلها على الساحل الاطلنطي - المغرب الاقصى -
في الناحية الواقعة بين الصويرة ('Corlcon Teichos ') وأكادير .

(5) وادي درعة بالمغرب الاقصى ايضاً

اتخذت مساكنها وهؤلاء الاقوام شديداً اللؤم ويقال ان نهر
الكسوس ينبع من ارضهم ، وحوالي النهر يسكن صنف من
الناس لهم اشكال خاصة يدعون التروكلوديت (١) ويزعم
الكسوسيون ان هؤلاء القوم يسبقون الخيل عدواً
أخذنا معنا عدداً من المترجمين وسرنا نخترق الصحراء الى
الجنوب ، وهكذا سرنا يومين ، ثم عرجنا في المسير ناحية
الشرق وبعد مسيرة يومين آخرين وجدنا خليجاً دائرته نحو
الميلين وفي وسطه جزيرة لها اهمية دعوناها صرته ، وهذه
المسافة بينها وبين اعمدة هرقل تضاهي المسافة التي بين هذه
الاعمدة وقرطاجنة

مررنا بعد ذلك بنهر عظيم يدعى الكرينيس ثم وصلنا الى
بحيرة بها ثلاث من الجزر كلها اكبر من صرته وبعد مسيرة يوم
لمبارحتنا لهذه الجزر وصلنا طرف البحيرة فوجدنا حولها
الجبال الشاخنة التي يسكنها المتوحشون ، ولما حاولنا النزول
رمانا هؤلاء بالحجارة ومنعونا ، فاستمر سيرنا الى ان وصلنا الى
نهر آخر عظيم جداً ، به عدد جم من التماسيح ومن البقر
المائي ، وعدنا بعد هذا الى جزيرة صرته

خرجنا منها وسرنا نحو الجنوب اثني عشر يوماً وكان
الاتوبيون الذين يقطنون تلك السواحل يفرون منا كلما اقتربنا
منهم وهم يتكلمون لغة لا يفهمها حتى المترجمون الكسوسيون

(١) Troglodytes وبكلمة اخرى سكان المغاور .

الذين أخذناهم معنا

واقتربنا في آخر يوم من جبال شاهقة كللتها أشجار ذات
أخشاب عطرة مختلفة الألوان ، ثم سرنا مع هاتيك السواحل
يومين ، فوصلنا الى خليج يوجد على ضفته اليسرى سهل رحيب
ولما جن علينا الليل رأينا هنالك لهيب النار يتصاعد من كل
مكان تزودنا ماء ثم واصلنا سيرنا خمسة أيام ، فأشرفنا على
خليج هائل أعلمنا مترجمونا انه يدعى قرن المغرب وبوسط
ذلك الخليج جزيرة كبيرة فنزلنا رابعة النهار ، فلم نشاهد
بها الا غابة تصاعدت أشجارها ، ولما خيم الليل شاهدنا نيراناً
يتصاعد لهيبها وسمعنا اصوات المزامير والطبول والدفوف مع
دوي عظيم (1) واستولى علينا الهلع وأمرنا المنجمون بمغادرة
تلك الجزيرة ، فبارحناها وابتعدنا عنها خائفين

سرنا أربعة أيام اخرى وكنا أثناء لياليها نرى لهيباً
يتصاعد نحو النجوم ويتبين لنا في النهار أنه جبل عظيم يدعى
مركبة الآلهة (جبل الكرون الناري) (2) واستمر سيرنا
ثلاثة أيام اخرى بجانب أودية ملتبة حتى وصلنا خليجاً يدعى
بقرن الجنوب ، وبداخله جزيرة في وسطها بحيرة وفي وسط
تلك البحيرة جزيرة أخرى يمتطئها اناس متوحشون ، عدد
نسائهم يفوق عدد الرجال ، وأجساد هاتيك النساء مكتسية

(1) لاحظ الدقة التي يروي بها حانون هذه الرحلة العجيبة

(2) يفهم من هذه التفاصيل ان افراد الرحلة بلغوا الى سواحل افريقيا
الاستوائية .

شعراً ، ولقد حاولنا الاستحواذ على بعض الرجال ، فلم نستطع امساك أحد منهم لانهم كانوا يتسلقون الاشجار بسرعة غريبة ويدافعون عن أنفسهم دفاعاً شديداً ، انما تمكنا من امساك ثلاث نسوة ، لكنهن ظللن يعضضن ويخدشن الذين أمسكوهن وبقي اتباعهم فقتلوهن وأتيننا يجلودهن الى قرطاجنة ولم نستطع ان نواصل سيرنا الى الامام لانه لم يبق لنا من الزاد شيء .

عن « قرطاجنة في اربعة عصور »

(ص 33 - 36)

الفصل الرابع

التنافس السياسي بين رومة وقرطاجنة

(264 - 146 ق.م.)

عرض لاحوال الدولتين الرومانية والقرطاجنية قبل
النزاع - الحرب البونكية الاولى - فتح اسبانيا
والحرب البونكية الثانية - النزاع بين مسينا
وقرطاجنة - الحرب البونكية الثالثة - اليوم الرهيب
- العوامل التي ادت الى تخريب المدينة القرطاجنية .

ان الذين يبحثون في أحوال رومة وقرطاجنة قبل نشوب
الخلاف بينها ويمعنون النظر في نظامها الداخلي ومبادئها
الاستعمارية ثم يقفون على حقيقة آراء كل من هاتين الدولتين في
الحياة ، لا يلبثون أن يروا بوضوح وجلاء أن التنافس بين
قرطاجنة ورومة كان امراً طبيعياً وان الحروب التي سيدور
الحديث حولها كان لا بد من وقوعها وليس هناك ما يدعو

الى الاستغراب ، كما يقول الاستاذ البارتي الذي يقدر الفرق
الشاسع بين رومة وقرطاجنة من جميع الحثيات
وليتمكن القارىء الكريم من الالمام ببعض الفوارق التي
اومأنا اليها يكفي ان نذكر ان القرطاجنيين كانوا يتعاطون
التجارة والملاحة في حين ان الرومان كانوا يهتمون بالفلاحة
ويعتمدون في ذلك على الممتلكات الواسعة التي تسلطوا عليها
قهرأ أضف الى هذا ان قرطاجنة كانت تكتفي ببسط
نفوذها على قطعة ضيقة من الارض على ساحل البحر الابيض
المتوسط لتقيم هناك بعض المستودعات التجارية ، بيد ان
الدولة الرومانية كانت على العكس من ذلك لا تتورع من
استخدام كل الوسائل الممكنة مشروعة كانت او غير مشروعة
لتوسيع ممتلكاتها داخل البلاد التي صممت العزم على احتلالها ،
مثلها في ذلك مثل ذلك الفلاح الصبور الذي يتحمل كل انواع
الحرمان في سبيل توسيع ملكه بأن يضيف اليه بالتدريج وبعد
العناء الطويل قطعة من الارض بعد اخرى (1)

كل هذه الحقائق جعلت من رومة وقرطاجنة دولتين
متباينتي الآراء والمذاهب ، مختلفتي الاغراض والمقاصد ،
لا يمكنها بحال ان تتفقا في كثير ولا قليل ، بل تنافس كلاهما
الآخرى وتعمل على ضحده شوكتها متى استطاعت الى ذلك
سبيلا . وفعلا ، فقد تمكنت الدولة الرومانية بعد كفاح مرير

(1) « افريقيا في التاريخ » بقلم البارتي - مارسي - ايفار (ص : 47)

من ان تبلغ امنيتها على اثر حروب دامية طويلة نشبت بينها وبين الحكومة القرطاجنية ، تلك الحروب التي عرفت في التاريخ بالحروب البونكية نسبة الى البونكيين (1)

قامت الحرب البونكية الاولى (264 - 241 ق.م.) بين رومة وقرطاجنة - كما كان المنتظر - لأسباب استعمارية ، ففي الوقت الذي كانت قرطاجنة مهيمنة فيه على شواطئ البحر الابيض المتوسط جعلت الحكومة الرومانية تسعى للاستيلاء على قسم من جزيرة صقلية ، وأرسلت اليها بالفعل عدداً من الجنود ، فارتابت قرطاجنة لهذا الامر وأرادت أن تحتفظ بالقسم الجنوبي من الجزيرة ، فبعثت اليها لفيفاً من الجنود ، ف وقعت الصدمة الاولى بين الفريقين وكان النصر فيها للرومان ، فركبوا في سفنهم عازمين على محاربة العدو في افريقيا نفسها ، فاشتبكت المعركة مرة أخرى بين الخصمين ، ولكن النتيجة أسفرت عن انهزام الرومان (255 ق.م.) ، وأسر القائد ريقلوس (Regulus) ، فعظمت المصيبة على الحكومة الرومانية ، وسرعان ما استؤنفت المعركة ولم تنته الا بخضوع القرطاجنيين للدولة الرومانية التي استولت على جزيرتي صقلية وقريطش .

ولم يكن ذا نهاية الخطب الذي حل بحكومة قرطاجنة ، بل اصبحت مهددة في الداخل من قبل الجنود المأجورين وقد

(1) والبونكيون (Poeni) هم القرطاجنيون في اللغة اللاتينية .

ثاروا عليها اذ ذاك يطالبون بأجورهم، فعاثوا في البلاد وكادوا ان يتلفوا بعض المدن برمتها لولا ان تداركها أميلكار باركا (Amilcar Barca) ملبياً دعوة الحكومة القرطاجنية ، فأحسن الدفاع وقضى على الثائرين قضاء نهائياً

على ان حكومة قرطاجنة أصبحت منهوكة القوى على اثر هذه الحروب الدامية الطويلة ، خصوصاً وقد انتهزت روما هذه الفرصة فسلبت قرطاجنة جزيرتي كرسىكة وسردينيا هكذا كانت نتيجة هذه الحرب الاولى ، استيلاء روما على صقلية بأسرها وقريطش وكرسىكة وسردينيا أي على أهم جزر البحر الابيض المتوسط التي كانت خاضعة من قبل لنفوذ قرطاجنة. هكذا برهنت رومة بذلك على اغراضها التوسعية والغاية الاستعمارية التي كانت تعمل من اجلها ومما زاد في الطين بلة بالنسبة للقرطاجنيين ان حكومتهم كانت - اثناء ذلك - قد انقسمت الى حزبين حزب يعمل لخوض غمار الحرب بكل وسيلة ويسعى لتوسيع الرقعة الخاضعة لنفوذ قرطاجنة ، اما اعضاء هذا الحزب فقد صمموا على ان يضعوا زمام الامر بين يد آل بركة المشهورة . وحزب يتألف من التجار والرأسماليين ، وهم لا يعملون الا من أجل السلم ليتمكنوا من التفرغ لمهامهم التجارية وجمع الاموال. وتضاربت افكار الحزبين وتباعدت، وفي الاخير انتهى بهما الامر الى انها جعلتا يسيطران على الحكومة القرطاجنية بالتناوب، فلا غرابة ان اصبحت الحكومة في حالة من التدهور منعته من القيام

بأي برنامج مفيد، فلا هي تستطيع تنفيذ برنامج الحزب الاول ولا هي بقادرة على تطبيق برنامج الحزب الآخر (1) واتفق بعد ذلك بقليل ان ارسلت قرطاجنة القائد هاميلكار لفتح اسبانيا رغبة في ابعاده عن ام الوطن ، وقد راحت سمعته تعظم يوماً بعد يوم بسبب تلك الانتصارات الهائلة التي حققها ضد الجنود الثائرة فدخل هاميلكار جزيرة اسبانيا ويضبط البلاد ضبطاً، ثم يجمع جيشاً يعمل على تدريبه بنفسه للانتقام - بعد -- من رومة عدوته الكبرى وازالتها من عالم الوجود تلك هي الخطة الهائلة التي صمم هاميلكار على تنفيذها مهما



القائد حنبعل

تكن الظروف والحوادث حتى ولو كان ذلك على يد ولده حنبعل (Hannibal) ، سر أبيه ، البطل الشهير الذي قطع على نفسه وهو ابن تسع سنوات فقط ان يكون عدواً لدوداً لروما حتى يقضي عليها او يموت (2)

وتوفي هاميلكار دون ان يحقق الخطة التي رسمها لنفسه ،

(1) موجز تاريخ الجزائر للاستاذ كات ج. أ. (ص 82)

(2) « حنبعل » بقلم حسين مؤنس .

فخلفه حنبعل على رأس الجنود البربرية حسب ارادة أبيه ، فكان اول عمل قام به استيلاؤه عمداً على ساكونت Sagonte احدى المدن الاسبانية التي كانت خاضعة للسلطة الرومانية ، فنكث بذلك المعاهدة المضروبة بين رومة وقرطاجنة، فطلبت رومة تسليم حنبعل من القرطاجنيين ، فأبوا ، فاشتعلت من ثم نار الحرب البونكية الثانية بين الدولتين (218 ق. م).

وتقدم حنبعل في 90,000 مقاتل واستولى على شمال اسبانيا وجنوب فرنسا دون مقاومة عنيفة ، ثم اجتاز جبال الألب (Alpes) الوعرة في مدة خمسة عشر شهراً ، وتكبد هناك خسائر عظيمة في الرجال والخيول والفيلة حتى لم يبق لديه بعد اجتياز الجبال المذكورة سوى 20,000 من المشاة و 6,000 من الفرسان و 21 من الفيلة ⁽¹⁾ ومع ذلك فقد انتصر على الرومان مرتين على ضفاف نهري «التيسان والتربي» (Le Tessin et la Trébie) ، وانضم الى صفوفه عدد من « الغال » (Gaulois) لم يخضعوا لسلطة الرومان الا منذ زمن قريب ، ثم وصل الى جبال « الابنان » ⁽²⁾ ، وبعدها الى بحيرة ترازيما حيث تغلب على الجيوش الرومانية مرة أخرى ، وكان الرومان قد اتبعوا في هذه الحرب خطة

(1) « رومة » بقلم الاستاذ مالي « Malet » .

(2) سلسلة جبلية ايطالية مشهورة تمتد على طول 1300 ك.م. ويتراوح ارتفاعها بين 1000 و 1300 متر .

حكيمه ، وهي انهم لم يقدموا على مقاتلة حنبعل وجهاً لوجه حتى لا يعرضوا قواهم للتلف والهلاك ، بل اكتفوا بمناوشة العدو وعدم ترك الراحة له ، ورغم ذلك كله لم تضعف قوى حنبعل اذ قررت رومة ان ترسل لمقاتلته احد قوادها الموهوبين اسمه فابيوس (Fabius) ، فاشتبك الفريقان في مكان يدعى كانة (Cannes) ⁽¹⁾ وواصل القتال بشدة وعنف ، وأبدى من الشجاعة الشيء الكثير غير ان المعركة اسفرت نهائياً عن هزيمة رومانية عظيمة وذلك سنة 216 ق. م. فعظم الخطب على الرومانيين واختلط عليهم الحابل بالنابل ، فلم يعلموا كيف يدראون الخطر عنهم. وتقدم حنبعل الى جنوب رومة ولكنه لم يجسر على محاصرتها او مهاجمتها نظراً لتحصيناتها المتينة واجتماع كلمة شعبها او لقلّة زاد الجنود القرطاجنية انفسهم هذا ما يذهب اليه بعض المؤرخين في تحليل موقف حنبعل بالنسبة للعاصمة الرومانية وقد اصبح منها قاب قوسين او ادنى ، على ان هناك من يرى غير هذا الرأي فيتساءل قائلاً

« ماذا صد حنبعل عن رومة ؟ كانت الحصون واهية والجيوش منكسرة ولا يكلف الاستيلاء عليها أقل الجهد ولكن حنبعل كان يرجو شيئاً آخر كان لا يريد ان يقتل الفريسة دفعة واحدة ، وانما يقطع اعضاءها عضواً عضواً

(1) مدينة قديمة كانت تقع في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة ايطالية .

ويمزق أشلاءها شلواً شلواً ثم يدعها تموت ، (1) ومهما يكن من أمر فان حنبعل لم يتقدم لمحاصرة رومة التي كان يرغب في الاستيلاء عليها ، فذهبت جهوده عبثاً ويروى بهذه المناسبة أن بعض قواده خاطبه اذ ذاك بقوله « نعم ، أنت تحسن الوصول الى النصر ولكنك لا تعرف كيف تستثمره »

وتطول المدة في ايطاليا بحنبعل ، ويبدو عجزه عن مهاجمة رومة ، فيطلب المعونة ثارة من ملك مقدونية (2) (Macédoine) فيليب الخامس ، وثارة أخرى من شقيقه باسبانيا أو من قرطاجنة نفسها ، فلا يتوصل بشيء من ذلك نظراً لأن الرومان كانوا يسعون في ائتلاف تلك الامداد قبل وصولها اليه (3) ، اذ ذاك جعلت آماله في الانتصار تتقلص والذي زاد في خطورة الحالة استيلاء الرومانيين على مدينة سيراكوز (Syracuse) الواقعة في جزيرة صقلية (212) ، وقد أصبحت لهم بمثابة صلة الوصل بين ايطاليا وافريقيا

والواقع ان الرومان نصبوا - في الوقت نفسه - سيبيون الافريقي (Scipion l'Africain) قائداً على الجنود الرومانية فصمم سيبيون على مقاتلة القرطاجنيين في عقر ديارهم وذلك

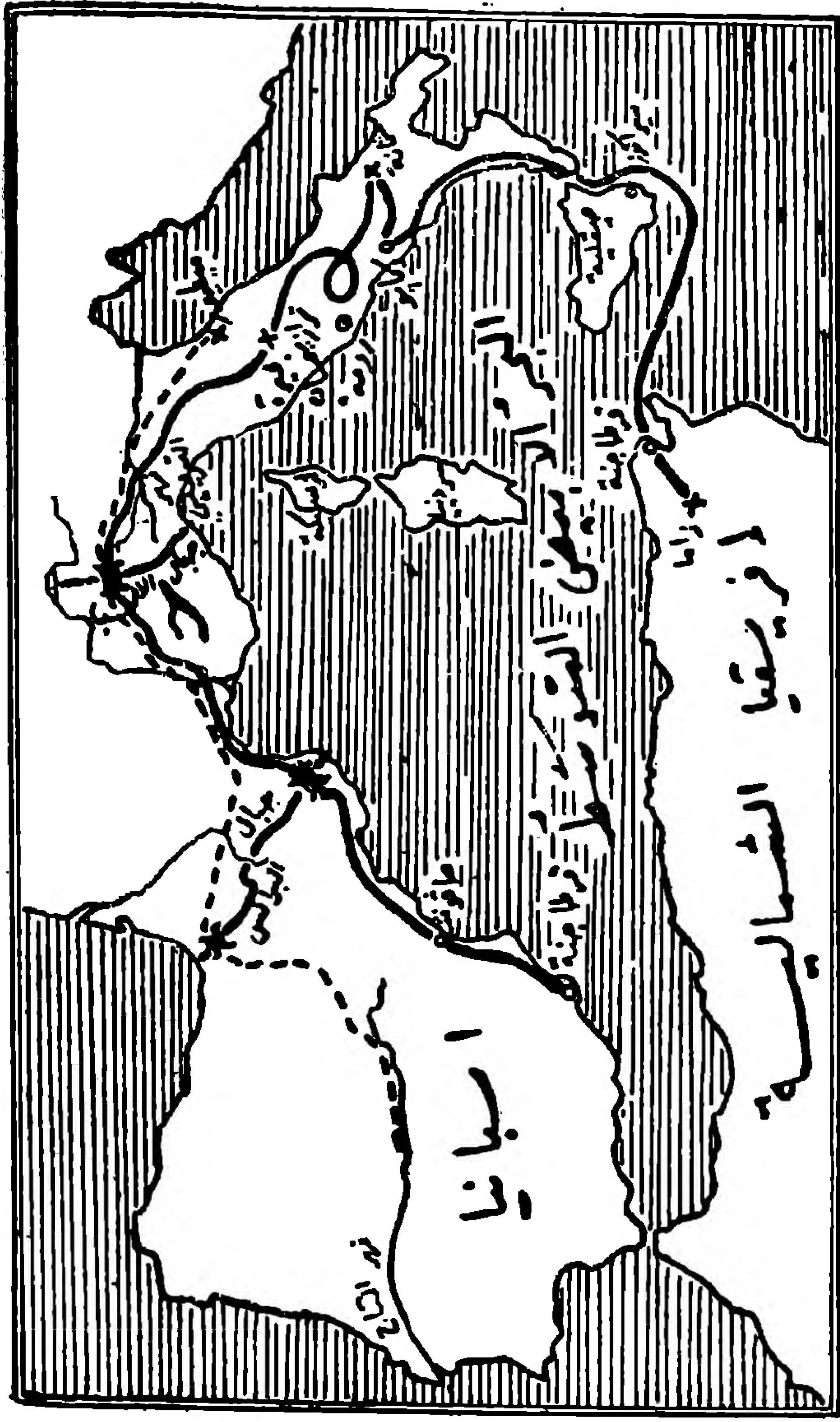
(1) حنبعل بقلم حين مؤنس .

(2) «مقدونية» هي الناحية الشمالية من بلاد اليونان حكمها ملوك عديدون

منهم فيليب الخامس وهو الذي قبل الآخر (221 - 178 ق. م.)

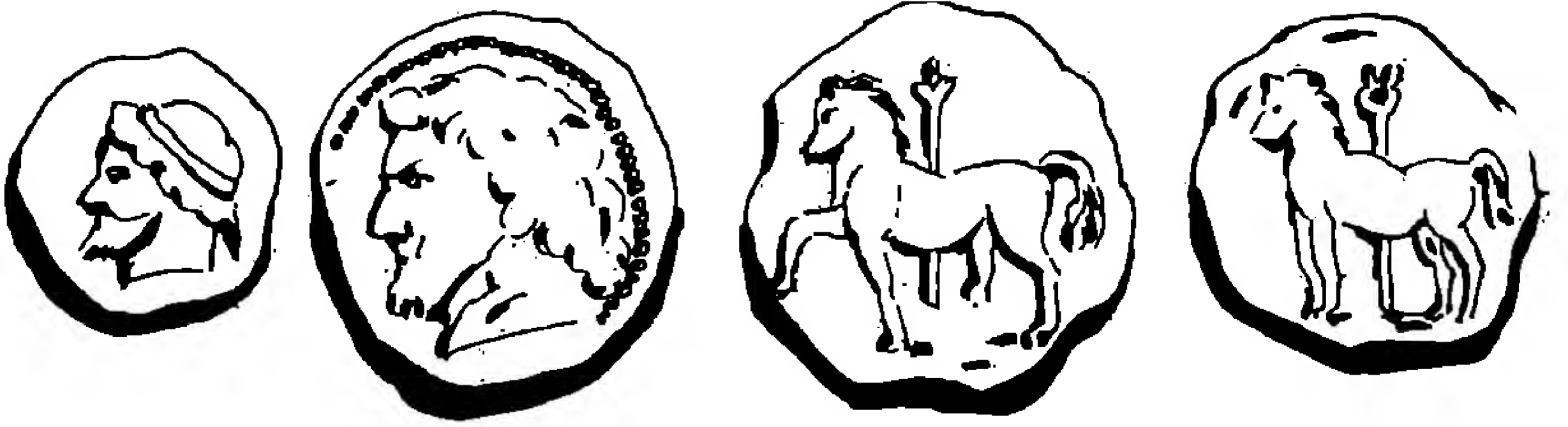
(3) كذلك اخذوا شقيقه أسيراً بالقرب من ميطور (Métaure)

واحتزوا رأسه ورموا به في معسكر حنبعل .



الحرب البونيقية الثانية (218-202) — الطريق الذي سلكه حنبعل في حملته على روما

..... الطريق الذي سلكه شقيق حنبعل لنجدة أخيه



نقود الملك مسينسا وعليها رسمه
(قرطاجنة في اربعة عصور ص 67)

بعد ما تمكن من ربط علاقات سرية مع بعض زعماء البربر كالقائد الأكبر مسينسا Massinissa (1) ولما علم أهل الحل والعقد بقرطاجنة ما عزم عليه سيبيون طارت عقولهم وهاجت أفكارهم وراحوا يصرخون « ان الوطن في خطر! » واستغاثوا بحنبعل ، فأسرع حنبعل لمساعدتهم ، ونشبت المعركة بينه

(1) أجمع المؤرخون على بكرة أبيهم أن مسينسا من اعظم زعماء البربر واشهر ملوكهم المعدودين . كرس حياته الطويلة في خدمة بلاده والسير على مصالح الشعب . اتخذ سائر الوسائل لنشر اللغة القومية بين افراد رعيته وعمل على بث روح الاخلاص والتضحية في نفوسهم . وأنشأ جيشاً بربرياً عتيداً واسطولاً قوياً كما انه ضرب السكة باسمه وادخل بعض التحسينات على اساليب الفلاحة في هذه البلاد وجلب لها الفنانين من ايطاليا واليونان ولقد سعى - من جهة اخرى - في ربط العلاقات السياسية والودية مع رومة عدوة قرطاجنة ومع اليونان للوصول الى هدفه الوحيد وهو تحقيق الوحدة السياسية في المغرب .

وبين الرومانين في مكان يدعى « زاما » (Zama) (1) في الجنوب الشرقي من قرطاجنة (202 ق.م.) ، ونظراً للمعاملة السيئة التي كانت قرطاجنة تعامل بها البربر مدة طويلة ، فان عدداً لا يستهان به من فرسانهم المغاوير انضموا بهذه المناسبة الى الجيوش الرومانية تحت قيادة الزعيم مسينسا ، فأسفرت الحرب عن هزيمة قرطاجنية شنيعة ، واليك الشروط القاسية التي أملتها رومة المنتصرة على عدوتها

1 - تعترف قرطاجنة بسيادة رومة المطلقة حتى على اسبانيا

2 - تسلم لها الأسطول والفيلة وتؤدي لها - فوق ذلك - غرامة حربية عظيمة

3 - تقيم مسينسا ملكاً على نوميديا (2) وتدفع له غرامة حربية كذلك

4 - تأخذ قرطاجنة على نفسها ألا تعلن حرباً ، بعد ، الا بمشورة رومة !

وهذه المعاهدة التي سلبت قرطاجنة جميع ممتلكاتها تقريباً وجردتها من أسلحتها وأضعفتها من الناحية المالية الى درجة بعيدة ، ثم جعلتها أخيراً تحت مراقبة مسينسا ، لا ريب أنها قررت بالفعل اضمحلال قرطاجنة بصفقتها دولة عظيمة !

(1) يظهر ان المكان يطلق عليه اليوم لفظة « سوق أخراس » .

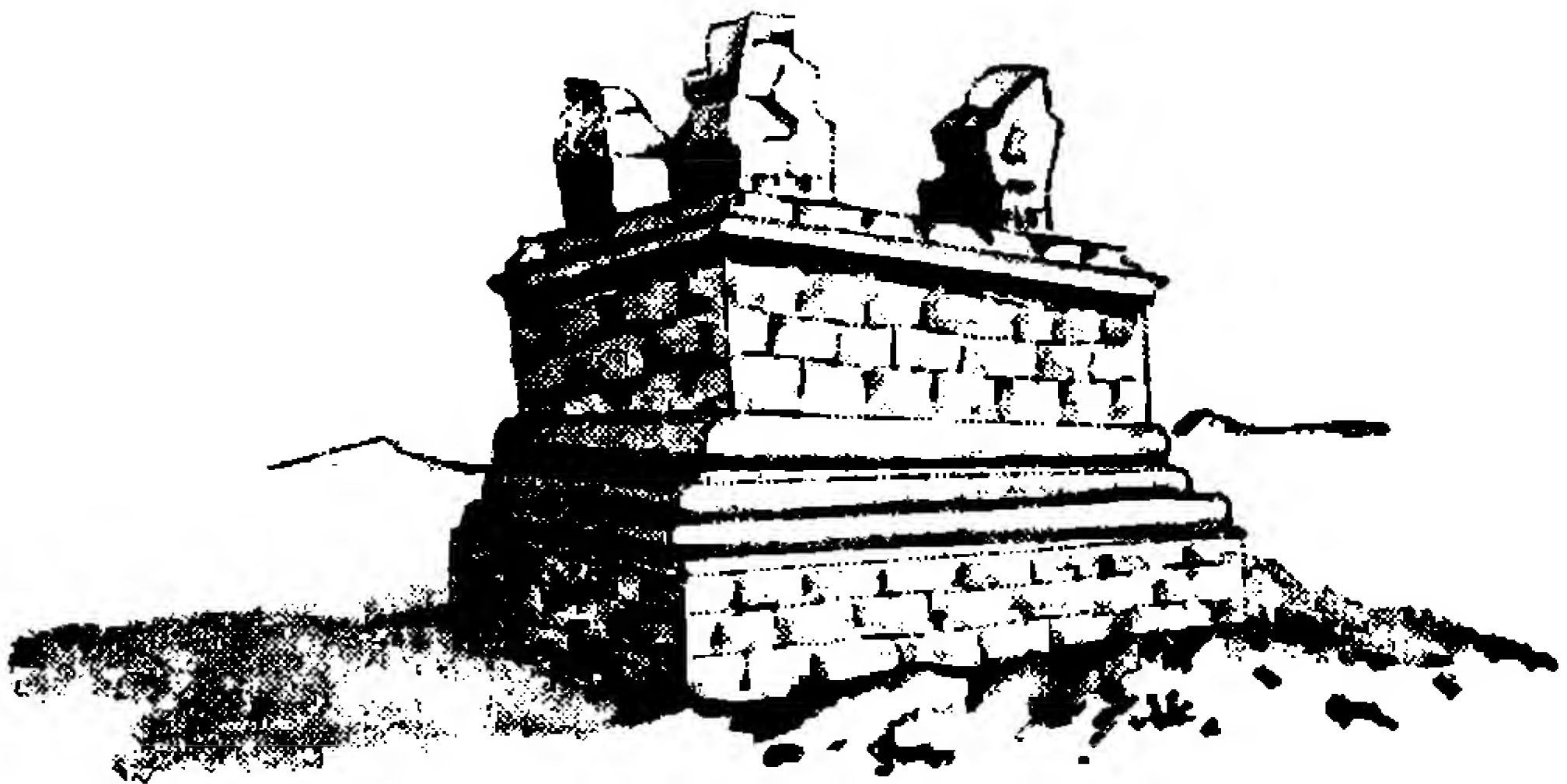
(2) هي المقاطعة الواقعة بين افريقيا وموريطانيا .

وعلى هذا فقد كان للحرب البونكية الثانية أثر بعيد في تاريخ المغرب القديم ، اذ حكمت للرومان في نزاعهم الطويل مع أهل قرطاجنة وجعلت من رومة قلب البحر الأبيض المتوسط النابض ، ومن افريقيا أرضاً تابعة لها ليس الا وكان الشقاق - اذ ذاك - سائداً بين أعضاء الدولة القرطاجنية كما هو منتظر بعد كل انهزام من هذا النوع ، فتنبه حنبعل لما عسى أن ينجم عن تلك الحالة السيئة ونصب نفسه حاكماً مستبداً على البلاد ، وجعل يسعى في إعادة نظام الدولة وهو ينوي من وراء ذلك كله اشهار الحرب على عدوته رومة والأخذ بالثار لأبناء وطنه لكن رومة التي لم تخل أرض افريقيا من أصدقائها الكثيرين كانت قد أخبرت بما عزم عليه القائد حنبعل ، فجذت في طلبه فاضطر هذا الأخير الى أن يجعل حداً لحياته بأن امتص قطرات من السم كان قد احتفظ بها لمثل تلك الساعة وهو يقول « لتسترح رومة اذا كان لا يرضيها أن تترك شيخاً في الستين يموت على مهل » (1)

وتروح رومة تحرض مسينسا على مهاجمة قرطاجنة بعد خروج حنبعل من الميدان ، ثم تغريبه وتبالغ في الاغراء ، لكن القرطاجنيين ضبطوا أنفسهم ، فلم يسلوا السيف على الزعيم البربري عملاً ببنود المعاهدة السابقة ومراعاة لشروط عام 202 ، الا أنهم عندما تفاقم أمر مسينسا رأوا من المعقول

(1) « حنبعل » لحسين مؤنس .

أن يوفدوا رسلاً الى رومة يشكون اليها سوء حالتهم مع هذا الأخير ، فقررت رومة ارسال لجنة لدرس القضية في عين المكان ، بقيادة رجل من أشد خلق الله عداوة للقرطاجنيين ألا وهو كاطون الملقب بالحكيم (Caton Le sage) ، نعم كان كاطون يكره قرطاجنة والقرطاجنيين كراهة ما عليها من مزيد، وكان متشبعاً بالفكرة القائلة بأنه لا خير للرومانين في بقاء قرطاجنة قائمة الذات على ساحل البحر الأبيض المتوسط وهو الذي اعتاد أن يختم كل خطبة من خطبه الرنانة بهذه الكلمة المأثورة « لا بد من محو قرطاجنة وازالتها من عالم الوجود » Delenda est Carthago فلما وصلت اللجنة الآتفة الذكر الى أرض قرطاجنه ، أرادت أن يكون حكمها نهائياً في النزاع القائم بين قرطاجنة ومسينسا او قل بينهما



قبر الزعيم مسينسا عن كتاب « افريقيا الشمالية في التاريخ »

وبين رومة أما مسينسا فقد قبل الاقتراح معتقداً أن رومة سوف لا تعمل الا ما فيه مصلحته

واما قرطاجنة التي شعرت بالخطر فقد رفضت كلياً رغبة في المحافظة على حريتها واستقلالها ، ثم أعلنت الحرب على مسينسا ، فاغتنمت رومة هذه الفرصة التي كونتها بنفسها كما رأيت ، وأشهرت السيف على عدوتها وهي في حالة لا تدري معها هل واجبها الوطني يقضي عليها بأن تعين مسينسا بنية وإخلاص . والسبب في ذلك أن رومة كانت تعلم علم اليقين أن الزعيم البربري قادر على التغلب على خصمه ، ولكنها كانت تعلم من جهة أخرى أنه اذا استولى على العاصمة القرطاجنية لا بد من أن يحافظ عليها ، فتصبح قرطاجنة بذلك أقوى مما كانت عليه ويصير مسينسا ملكاً يعتد به ويخشى شره في كل حين ...

واشتعلت الحرب حينئذ للمرة الثالثة بين رومة وقرطاجنة فتقدمت الجيوش الرومانية ونزلت بالتراب التونسي سنة 149 ق.م. تحت قيادة القنصل ماريوس (Marius) ، وخاف القرطاجنيون على أنفسهم ، فطلبوا منه الصلح ، فأجابهم الى طلبهم على أن يسلموا اليه أسطول قرطاجنة وجميع أسلحتها ، فقبلوا ثم إن الرومان لم تقف غطرستهم عند هذا الحد ، بل طلبوا منهم - بعدما سلبوهم أسلحتهم - أن يفادوا المدينة - عنوان مجدهم ورمز عظمتهم التي طالما خاطروا بأنفسهم من أجلها ، فيبتنوا مدينة أخرى قريبة منها ، غير محصنة !

يا للعار ! هل هناك من يرضى بهذه الشروط الجائرة الا من
تعوّد عيشة الذل والاحتقار ؟ ! كلا ، فهذه نفوس القرطاجنيين
تفيض ، فيقومون قومة رجل واحد ما بين كهول وشيوخ
وأطفال ونساء وفتيات مصممين كلهم على الدفاع وقد هان
الموت في أعينهم ويبيدي النساء والفتيات بنوع خاص
تضحية كاملة وبسالة نادرة وثباتاً في الدفاع لم يسبق له نظير
في هذه المأساة المؤلمة العظيمة

تقدمت الجيوش الرومانية لمحاصرة قرطاجنة تحت قيادة
سببيون اميليان (Scipion Emilien) سنة 146 ؛ واستمر
الحصار ستة أيام متوالية كانت نتيجته تخريب العاصمة وتدميرها
والقضاء على مدنية من أرقى مدنات العالم القديم !.

فاذا راجعنا التاريخ - والتاريخ كله دروس ومواعظ -
للقوف على أسباب هذا السقوط رأينا يرجع الى عوامل
شتى منها سوء سياسة القرطاجنيين مع البربر ووجود نزاع
دائم مستمر بين أفراد الحكومة القرطاجنية من شعبين
وأشراف ، كلهم متهافتون على مذهب المادية ، كما يعزى أيضاً
ذلك السقوط الى نشوء فكرة سياسية بين البربر ترمي الى
الحصول على وحدة البلاد وكذلك الى سوء نظام الجيش
القرطاجني .

ولهذا السبب الأخير أهمية خاصة في انهيار قوة القرطاجنيين
لأن الجيش كان ، اذ ذاك ، يضم عدداً كبيراً من الأجانب
لا يستطيعون طبعاً بحكم وضعيتهم الأجنبية أن يدافعوا عن
قرطاجنة بكل ما ينبغي من التضحية والاخلاص .

اليوم الرهيب

دام الحصار (١) على تلك الشدة حولاً كاملاً ، وتجرع القرطاجنيون أثناء ذلك أنواع الآلام والأسقام ، وكانوا يزدادون شدة في المقاومة وثباتاً في الدفاع كلما ازداد الرومانيون عزيمه على محق المدينة وتصميماً على الاستيلاء عليها وتدميرها . وجاء عام 146 ، وأزفت ساعة خروج تلك الروح المحتضرة من الجسد المغربي ، فجهز سيبون (2) فيالقه وأرسلها بعنف على المدينة ، واشتعلت نيران ملحمة هي من أكبر معامع التاريخ شدة وفضاعة ، وكان القرطاجنيون رجالاً ونساء وصبية يحملون السلاح ويدافعون لكن الأسوار سقطت تحت ضربات الرومانيين ودخلوا المدينة ، وكان يوماً هائلاً وكانت ليلة رهيبة ، وكانت الأشلاء تتطاير كأوراق الخريف ،

(١) حصار قرطاجنة .

(2) سيبون ايميليان الآنف الذكر

وكانت الدماء تملأ الأزقة والساحات ، فلا تسمع الا الأنين
وحشيرة الموت ولا ترى الا الخراب ولا تبصر الا سيلان
الدماء

واشتد دفاع القرطاجنيين ، فكان الرومانيون يحتلون
المدينة قسماً قسماً بعد محق أهله المدافعين ، وبعد تكبد ألم
الخسائر ، واستمر ذلك ستة أيام وست ليال . ولما كان اليوم
السابع دخلت قرطاجنة العظيمة في حكم التاريخ

بقي القائد ازربعل ^(١) حياً بعد ممات رجاله ، فالتجأ الى
هيكل قديم ، ومعه رجال من قومه وزوجته وولداه ونحو
ألف من الفارين القرطاجنيين ، وقد فقدوا كل أمل في النجاة
فتولى القائد الصغار في آخر ساعة وسلم نفسه ، وافضيتاه
للرومان ، وشاهد القرطاجنيون ذلك ، فأوقدوا النيران في
الهيكل وماتوا

النار تلتهم الأسوار حولهم والسيف يحصد منهم كل جبار
رأوا طريق نجاة فتحت لهم وإنها لطريق الحزي والعار
والحر لا يرتضي ذلاً ومسكنة ففضلوا الموت بين السيف والنار

وكانت زوجة ازربعل ، قبل موتها ، قد وقفت تجاه
زوجها على درج الهيكل وزوجها بين يدي الرومان ، وحلقت
فيه بعينين جمعتا كل الغيظ القرطاجني وصاحت به : « اذهب

(١) حاكم مدينة قرطاجنة وقائد الجيش القرطاجني الباسل .

أيها النذل ذليلاً ، ليفتخر المنتصرون بأسرك ! ، ثم خنقت
بيديها فلذتي كبدها وألقت بها وألقت بنفسها إثرهما في وسط
اللهيب ، النار ولا العار ، وهكذا كان ختام آخر صفحة في
التاريخ القرطاجي

عن « قرطاجنة في أربعة عصور »

(ص 76 - 84)

الفصل الخامس

افريقيا الرومانية

(146 ق.م. - 429 م.)

نتيجة الانتصار - يوقورطا بين رومة وبوكس -
يوبا الثاني : مكانته بالنسبة لملوك البربر وأعماله
الهامة - التنظيم الاداري في أيام الاحتلال الروماني
- الحياة الاقتصادية - الحياة الاجتماعية - ظهور
المسيحية بالمغرب ومفعولها في البربر - تأثير المدنية
الرومانية في الأهالي - الحياة الأدبية والفنية
ترتوليان وأوقستان .

بمجرد ما احتلت بلاد المغرب بادرت رومة الى تقسيمها
تقسيماً ادارياً ، فجعلتها ثلاثة أقسام وهي
I - افريكا اللاتينية (Provincia Africa) وهي عبارة
عن معظم البلاد التونسية ، وكان الرومان يديرونها رأساً

2 - نوميديا (Numidia) ، وتمتد من التراب التونسي الى قسنطينة (Cirta) وتنقسم هذه المملكة الى قسمين ، أحدهما تحت تصرف مسبسا⁽¹⁾ ابن مسينسا (118 - 146 ق.م.) والآخر تحت تصرف ابن أخيه يوقورطا (Jugurtha)

3 - موريطانيا (Mauretania) التي وضعوها تحت نظر القائد البربري بوكوس (Bocchus)⁽²⁾ ثم فكر الرومان في انشاء عاصمة تستقر بها الحكومة ، وبعد امعان النظر رأوا أنه يكون من المعقول احياء مدينة قرطاجنة نظراً لحسن موقعها ، فأخرجت قرطاجنة من جديد الى عالم الوجود وسموها « جنونيا » حتى لا تطرق سمعهم مرة أخرى لفظة قرطاجنة المشؤومة !

على أن الرومان لم يبسطوا نفوذهم على افريقيا الشمالية بأسرها كما قد يخيل اليك ، انما كانوا يحتلون ، قبل كل شيء ، الأراضي التي لها فائدة عسكرية أو اقتصادية

وأما المناطق الواقعة تحت تصرف الرومان ومراقبتهم فهي التي كانت توجد بين ساحل البحر وخط مجاور للنواحي الصحراوية يدعى عندهم بالليمس (Limes) ، هو عبارة عن طريق معبدة هائلة أو خندق عميق أو سلسلة قصبات كانت

(1) كان مسبسا هذا يحاول ان يضرب على غرار ابيه ويسعى بجميع الوسائل ان يقتدي بأرائه واعماله الا انه في الواقع كان دون والده ذكاء ومقدرة

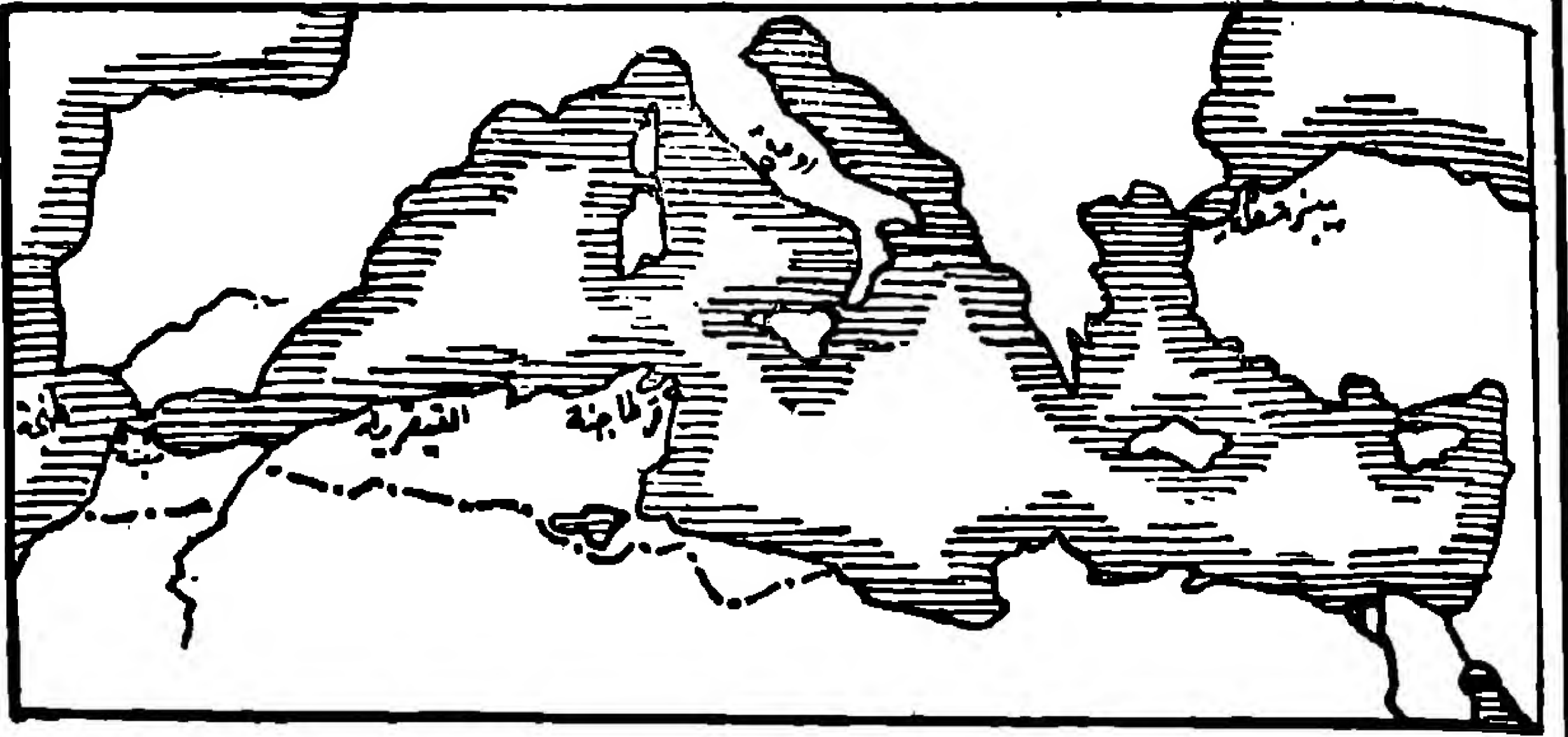
(2) قرطاجنة في اربعة عصور (ص 79) .

يسكنها قدماء المحاربين المكلفين بحفظ الأمن ، فقد كانت هناك طبقات لم تخضع بعد للسلطة الرومانية وقد تحدثهم أنفسهم بالانقضاء من حين لآخر على سكان المدن الآمنين ... وكان هذا الليمس يذهب من طرابلس ، فيمرج على البحيرات التونسية وجبال الأوراس ، ثم يمر جنوب غرب بسكرة ، فيجتاز قرية بو سعادة ، وبعدها يقطع وادي شلف ويربط النواحي المذكورة بتاخارت (Cohors Breucorium) والزفيزف (Altava) وتلمسان (Pomaria) ومغنية (Numerus Syrorum) ، وبعد ذلك يصعد الليمس الى الشمال فيمر على تازة وينتهي أخيراً الى جنوب الرباط (1) بعد ما يمرج على طنجة (Tingis) ووليلة (Volubilis) (2) . ومهما تحمل الرومان من مشاق في سبيل مراقبة البلاد مراقبة شديدة للقضاء على مميزات الشعب المغربي ، الا انهم لم يتمكنوا من اخضاع ملوك المغرب لارادتهم وحملهم على الانقياد لهم خصوصاً اذا كانوا كيقورطا من الملوك المرموقين الذين وطنوا النفس على الكفاح مها كلفهم من ثمن في سبيل مصلحة الشعب

أجل ، لم يخضع يوقورطا للسلطة الرومانية ، بل لم يكن

(1) يستطيع المتجول ان يشاهد قطعة من ذلك الليمس على الجانب الأيسر من الطريق المؤدية الى الدار البيضاء على بعد ستة كيلومترات تقريباً من مدينة الرباط

(2) « افريقيا الشمالية في التاريخ » (ص 72) .



تداد النفوذ الروماني في افريقيا الشمالية اثناء القرن الثالث الميلادي

يفكر الا في العمل لفائدة شعبه ، كان - والحالة هذه - يضرب على غرار مسينسا العظيم ويسعى مثل سلفه الصالح في توحيد المملكة المغربية واعادة مجدها الماضي ، ولذلك راح يبسط نفوذه - قبل كل شيء - على جميع بلاد نوميديا بعدما اغتال ملوك نوميديا الشرقية من أبناء عمه أدربال وحمصال

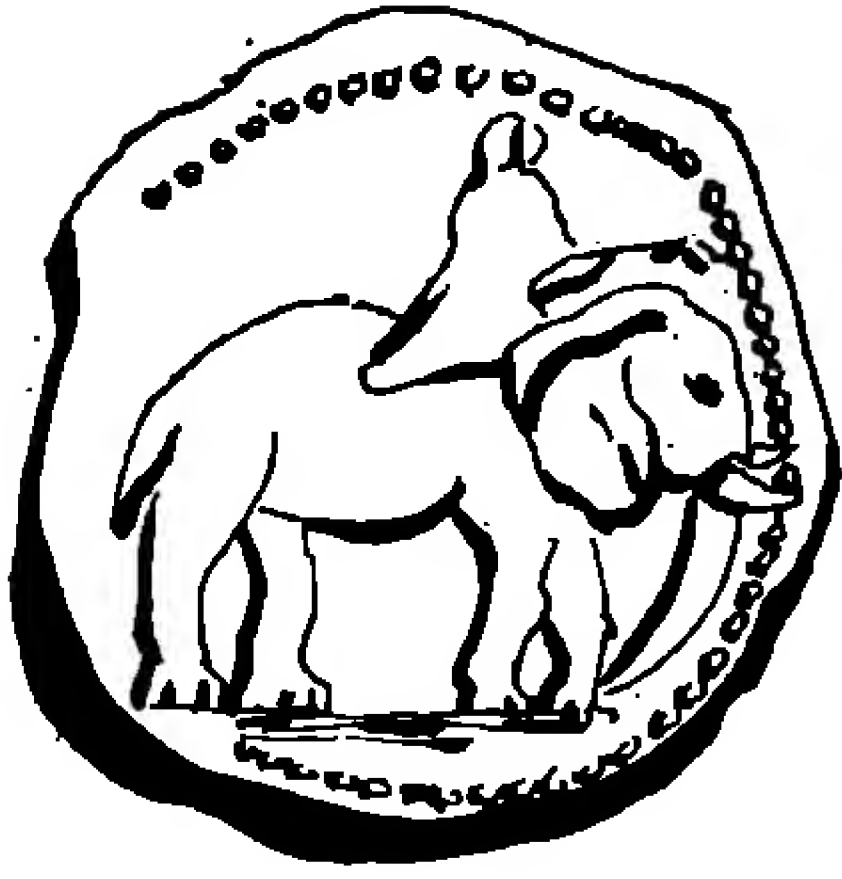
وتخاف رومة أن يتم له أمر المغرب بأسره ، فتعلن عليه الحرب مرة أخرى ، ويخرج الرومان من المعركة منتصرين ، فيضطر يوقورطا الى الفرار والنزول على صهره ⁽¹⁾ بوكوس (Bocchus) ملك موريطانيا ، ولكن الخائن بوكوس يخاف على عرشه ، ويتسرب الجشع الى نفسه الدنيئة ، فيسلمه

(1) وكان والد زوجته

– وافضحناه ! – لسىلا (Sylla) خليفة ماريوس القائد الروماني المشهور ولا يلبث الرومانيون أن يقدموا للملك بوكوس جائزة ذات قيمة واعتبار على خيانتة وذلك بضم الجهة الغربية من منطقة نوميديا (الجزائر الحالية) الى موريطانيا الطنجية جزاء له على خيانتة ! ولما توفي بوكوس الذي سعى في توسيع مملكته بالصورة التي رأيت ، حاول الامبراطور الروماني أوقست (Auguste) أن يجعل من موريطانيا الغربية بلداً مستقلة ، وأجلس على عرشها ملكاً من أشهر ملوك البربر ، نظراً لما أنجزه من اصلاحات وما قام به من أعمال جليلة في سبيل مصلحة بلاده ، هو يوبا الثاني Juba II (1) وقد توثقت العلاقات بين يوبا الثاني وبين كايوس قيصر ، ولي عهد الامبراطورية الرومانية الى درجة أن كايوس حمّله معه الى المشرق وزوجه هناك من الأميرة كليوبترا (La Princesse Cléopâtre) ابنة انطوان ، وكليوبترا ملكة مصر

وكان يوبا الثاني حاد الذهن ، ثاقب الفكر ، عارفاً بما له من الحقوق وما عليه من الواجبات نحو وطنه ، وقد بذل جهوداً كبيرة – شأن الملك مسينسا من قبله – لتنشيط الحياة

(1) يعتبر يوبا الثاني بحق من اكبر ملوك البربر الذين كرسوا حياتهم كلها في خدمة بلادهم ، وقد حكم مدة خمسين سنة ولم يفكر اثناء حياته الطويلة الا فيما يعود على شعبه الوفي بالخير والهناء ، وقد عاش من سنة 25 ق.م حتى سنة 40 م.ب.



نقود ضربها الملك يوقورطا

الاقتصادية واستثمار الأراضي الفلاحية بالوسائل العصرية الحديثة وما يزيد في شأن هذا الملك بالنسبة للملوك المغرب الأقدمين انه كان فناناً مولعاً بدراسة شؤون الهندسة ، ميالاً الى وضع التصميمات العمرانية الفنية الدقيقة. ولقد جعل من مدينة شرشال قاعدة ملكه ، وسماها القيصرية (Cesarea) باسم الامبراطور قيصر الآنف الذكر اعترافاً له بالجميل ، وجلب لعاصمته مختلف الفنانين من مصر واليونان ، فشيّدوا فيها من القصور الجميلة والهياكل الفخمة ما جعلها بحق محط أنظار الملوك والأمراء ، كما جلب لها عدداً من الكتاب والشعراء والفلاسفة

وعني هذا الملك عناية خاصة بنشر الثقافة الرومانية واليونانية في سائر أنحاء البلاد ولا غرابة في ذلك فقد كان مولعاً بالبحث والتنقيب ، شغوفاً بالمطالعة والدرس ، فلا يفتر عن الكتابة والتأليف والواقع أنه ألف عدة كتب لها

قيمتها واعتبارها في مختلف العلوم والفنون مثل التاريخ والجغرافية والفلسفة والموسيقى، إلا أن يد الاهمال لعبت بهذه الكتب كلها ، فلم يصل اليها ولو كتاب واحد من هذه الثروة الأدبية القيمة (١)

وعاشت البلاد مدة من الزمن ترعى في بحبوحة من العيش الرغيد التي ان هبت عليها ريح الفتنة وشق عصا الطاعة على الرومانيين أحد سكان نوميديا اسمه تاكفاريناس (Tacfarinas) كان قد أدى الخدمة العسكرية في الجيش الروماني ، وظل رافعاً راية العصيان مدة من الزمان ، ولكن تاكفاريناس رغم ما أبداه من الجهود لتحقيق أمنيته الوطنية الغالية ومهما كانت الاعانة التي كان يتسلمها من القبائل البربرية في المنطقتين الشرقية والغربية معاً ، لم يستطع متابعة القتال ، واضطر آخر الأمر الى الاستسلام للعدو ، والقى السلاح بين يديه

ومات الزعيم تاكفاريناس ، فاطمأنت قلوب الرومان وهدأت نفوسهم بعد أن لم يبق من يقوى في البلاد على مقاومتهم وهكذا خرت عزائم البربر واضمحلت آمالهم في الاستقلال الى حين .

واذ ذاك بسطت رومة سلطانها المطلق على جميع بلاد المغرب لتجعلها مستعمرة لها بكل ما في هاته الكلمة من مدلول ، وبعثت اليها طائفة من المستعمرين من أبناء جلدتها

(١) افريقيا الشمالية في العصر القديم (ص 60) .

يعملون على تطبيق الخطة التي رسمتها لنفسها باستغلال المغرب
أبداً استغلال

وبذلت الحكومة الرومانية كل مستطاع لاقرار الأمن في
البلاد ، فتمكن المستعمرون من القيام بمهمتهم الاستغلالية على
أبعد وجه ، واستثمروا أراضيهم الواسعة بكل الوسائل
الممكنة هذا من جهة ومن جهة أخرى سهرت الحكومة
المركزية على اقامة نظام اداري محكم في افريقيا الشمالية كلها ،
وعهدت بادارة الشؤون العمومية في البلاد الى حاكم يحمل اسم
البروكنسول (Proconsul) ، وكانت البروكنسول هي
تطبيق القوانين واقرار العدل بين الأهالي ، كما كان مكلفاً من
طرف الحكومة المركزية بجمع الضرائب ومراقبة نفقات الدولة.

والواقع ان هذا الموظف الكبير (١) كان يستعين على القيام
بمهمته الشاقة بموظفين آخرين من الرومان والبربر يتمتعون
بسلطة مطلقة على الأهالي . وكان هؤلاء الأهالي المساكين
يتألمون من شتى الضرائب المفروضة عليهم فرضاً كالضريبة
الشخصية والضريبة الفلاحية وغيرها

وكان البروكنسول يعيّن في وظيفته لمدة عام واحد على
أن الحكومة كثيراً ما كانت تقره مرة ثانية وثالثة في نفس

(١) كانت رواتب الموظفين الكبار مرتفعة جداً وكان البروكنسول مثلاً
يتقاضى من الحكومة سنوياً ما لا يقل عن مليون « سيترس » والسيترس
قطعة نقدية رومانية من الفضة .

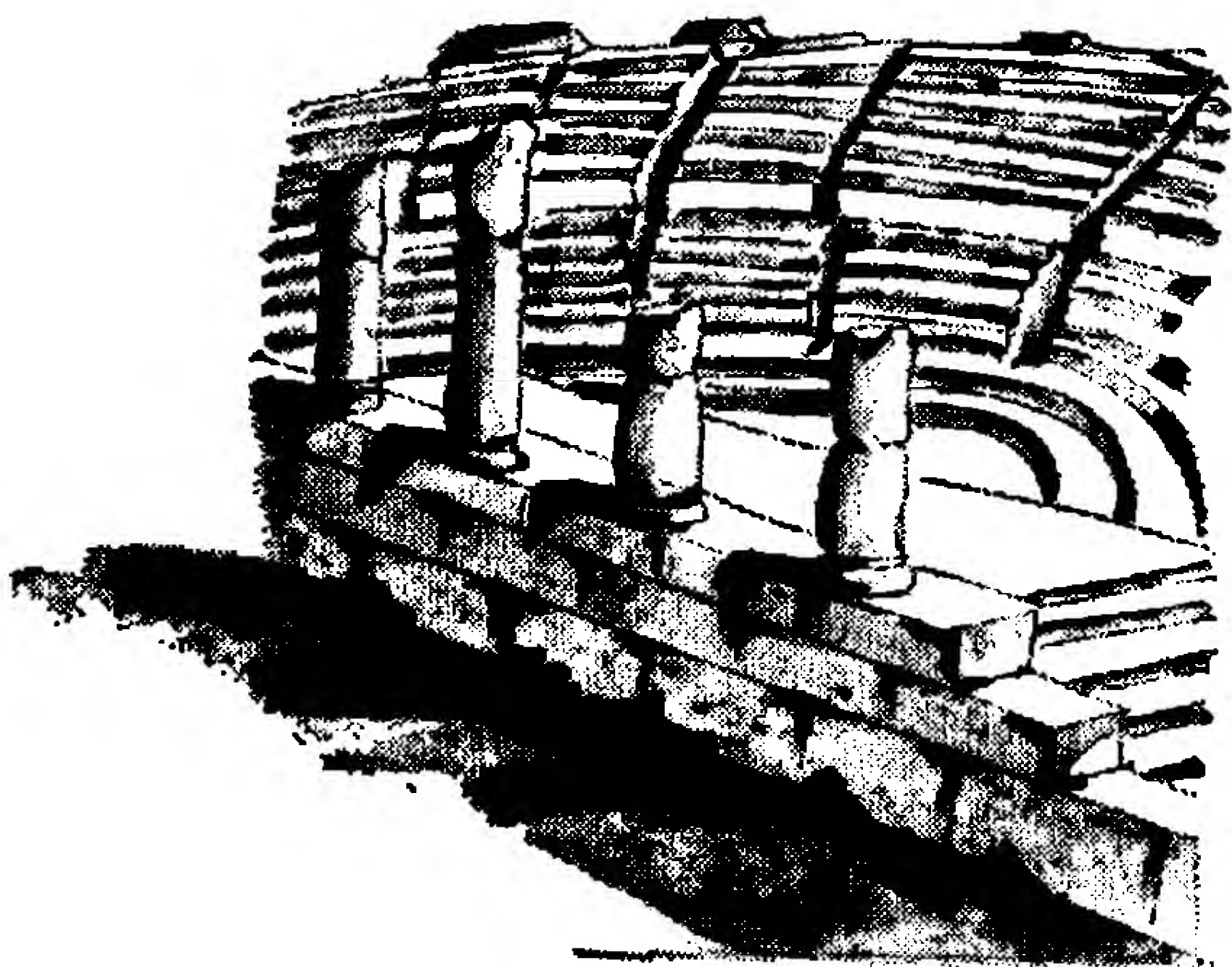
الوظيفة كلما أحسن القيام بأموريته الرسمية
أما الجند المرابط بتراب المغرب من أجل اقرار الأمن ،
فلم يكن عددهم كبيراً بالنسبة للمساحات المحتلة ، وهذا أوضح
برهان على تفوق الرومان من الناحية السياسية وفي ذلك أيضاً
دليل بيّن على دقة نظمهم الادارية

وكان الجيش الروماني يتألف خاصة من الجنود المعاونين
ومعظمهم من اسبانيا وبزنطة وافريقيا نفسها ، وكانت عدد
هؤلاء الجنود المأجورين قليلاً في بداية الأمر ، ثم صار يزداد
يوماً بعد يوم حتى أصبح معظم الجند من البربر ، كما كان الحال
في أيام الامبراطور أنطوان Antoine l'Empereur
(138 - 161)

وكان الرومان يقتصرون - كما أسلفنا - على احتلال
المراكز التي لها أهمية عسكرية ولا يختلطون إلا قليلاً بسكان
البلاد الأصليين ، على انه كثيراً ما كانوا يستقرون بعد قضائهم
لمدة التجنيد بنفس الناحية التي أدوا فيها الخدمة العسكرية ،
بل كانوا يتزوجون أحياناً من نساء بربريات من تلك الجهات .
وليس من شك في أن هؤلاء الجنود ساعدوا نوعاً ما على نشر
المدنية الرومانية في الأوساط الأهلية البسيطة ، فأثروا في الأهالي
بملفتهم وعوائدهم ونظمهم ومعتقداتهم ، ومعلوم أن تلك اللغة
والعوائد والنظم والمعتقدات كلها رومانية لأن الذين حملوها
إلى الغرب استمدوها من الرومان أنفسهم
ولم تكن أعمال الجند منحصرة في عملية اقرار الأمن وقمع

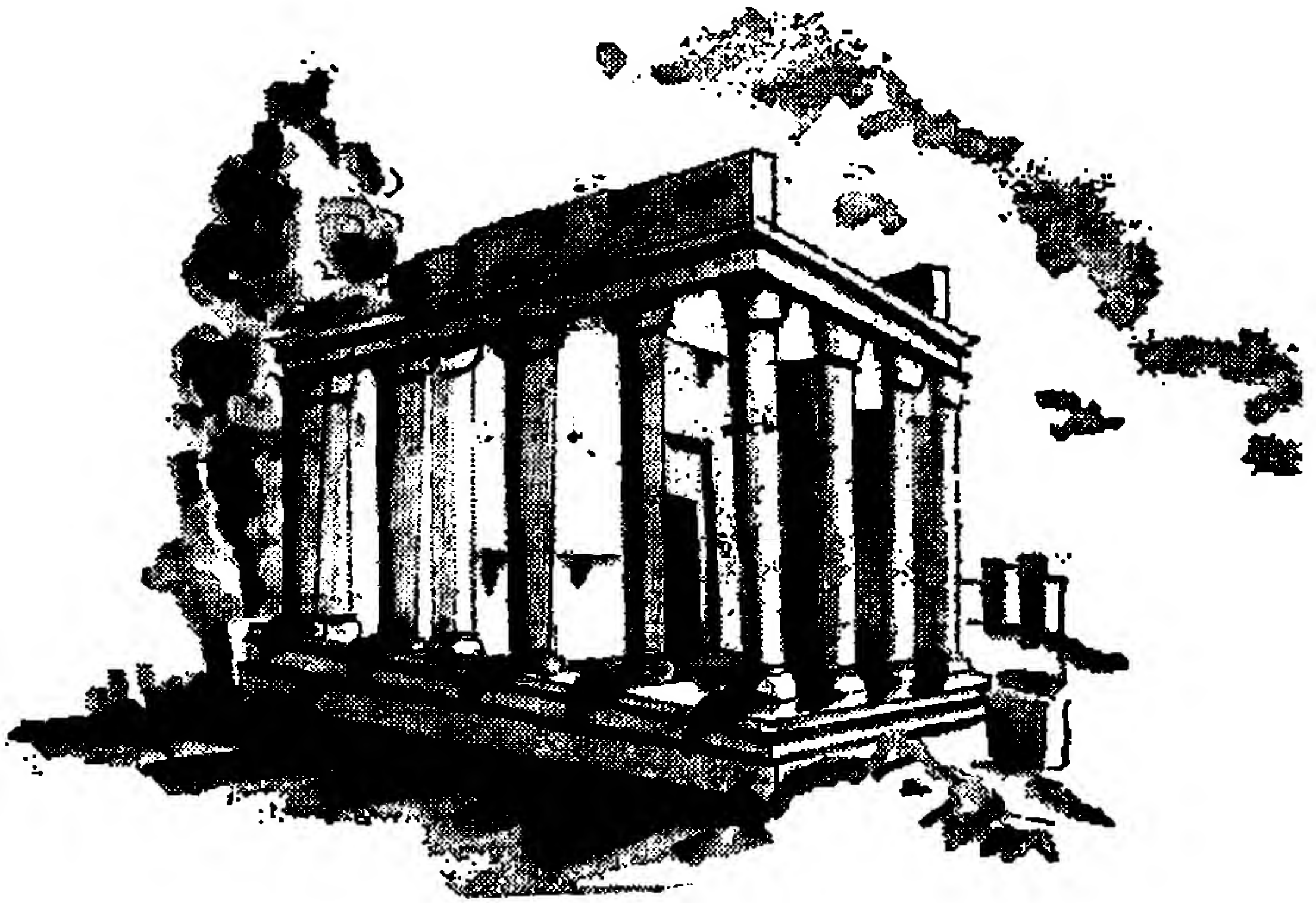
الثوار ونشر المدنية الرومانية في البلاد ، بل كانت الحكومة تعهد اليهم ، من حين لآخر ، بمهمات اصلاحية كبرى كمد الطرق وبناء الحمامات والملاعب والمراسح والقناطر والهياكل وكلنا نعلم - بناء على ما نشاهده في بلاد المغرب من آثار رومانية رائعة - إن الرومان كانوا مشغوفين الى حد بعيد بالبناءات الفخمة الشاهقة ، ولذا أكثروا منها وتفننوا في وضعها ما شاء لهم أن يتفننوا

وقد اهتمت تلك الجنود أيضاً بإنشاء طرق مرصفة عريضة كانت تصل بين المدن الكبرى كالطريق الداهية من طنجة الى سلامارة بالعرائش أو من طنجة الى ويلة بمنطقة موريطانيا ، أو كالطريق التي كانت تصل بين تلمسان وولاية على طريق



مسرح روماني بمدينة الجميلة (الجزائر)

تأزة . وكانت هناك طريق كبرى تجمع بين قرطاجنة وسرثا Cirtha (قسنطينة) مارة على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وقد وضعت هذه الطرق أول مرة لأسباب عسكرية وبعد ذلك استخدمت لغاية تجارية والواقع أن الرومان أبدوا مجهودات جبارة في انشائها ، ويكفيها دليلاً على ذلك أن الطريق الكبرى التي كانت تربط بين طرابلس وقافنة كان يقدر طولها بمائتين وألف كيلومتر ، هذا دون الطرق العمومية الثانوية التي كانت تصل بين أجزاء البلاد من الشمال والجنوب. ولم يقف الرومان عند هذا الحد ، بل انتبهوا الى ضرورة حفر الآبار - نظراً لقلة الأمطار - ووضع السقايات وجلب



هيكل روماني بتبسة

مياه العيون الطبيعية الى المدن الرومانية العامرة و غني عن
البيان أن تلك الملاعب والقناطر والحمامات والطرق وغيرها
من المؤسسات التي وضعها الرومان لفائدتهم الخاصة ، قبل كل
شيء ، لم تقم الا على الضرائب التي كان الرومان يستخلصونها
من الوطنيين والمبالغ الهائلة التي كان الاغنياء من الرومان
يقدمونها طوعاً للحكومة أملاً في نيل الوظائف الشرفية
الكبرى وطلباً في الشهرة ليس إلا وكانت الحكومة تأمر إذ
ذاك برسم أسماء أولئك المتبرعين على جدران الهياكل تخليداً
لأعمالهم البرية

على أنه اذا رجعنا الى الاكتشافات الحفرية الرومانية التي
تذكر تلك التبرعات نرى أن عدداً من تلك النقوش يرجع
عندها للقرن الثاني الميلادي ، مما يدل على أن الحالة الاقتصادية
كانت إذ ذاك تبعث على الاطمئنان إذ لا تيسر التبرعات
طبعاً إلا مع اليسر ، وفي تعددها دليل واضح على أن الطبقة
الرومانية المتوسطة كانت تحيا في ذلك الزمان حياة مرضية
بوجه عام

ولكن ما بال هذه النقوش أصبحت قليلة نادرة الوجود في
عهد الامبراطور ديو كليسيان (Dioclétien) ؟ أفـلأن
الناس تبدلت نظريتهم في الحياة على أثرا انتشار الديانة المسيحية
في المغرب ؟ أم لأن حالتهم المادية تدهورت الى حد أنهم
أصبحوا لا يستطيعون أن يتبرعوا بما كانت تجود به أريحتهم
في القرن السابق ؟!

الواقع أن انتشار الديانة المسيحية في المغرب كان من العوامل الأساسية التي أدت الى تحريف نظرية اولئك الثريين والأغنياء عما كانوا يقومون به من أعمال عمرانية بقصد التباهي والافتخار ، ذلك أن الدين المسيحي ينهى - كما هو معلوم - عن التباهي بالمال والجاه وحتى بالقوة البدنية ، فكيف يسمح لمعتنقيه أن يتبرعوا بما حباهم الله به من ثروة طلباً للشهرة وابتغاء مرضاة الناس من دون الله الذي خلقهم وخلق كل شيء؟ أضف الى ذلك أن انتشار الديانة الجديدة وتهافت الطبقة المحرومة عليها من السكان - كما سنتحدث اليك عن ذلك فيما بعد - كان سبباً في اثارة رد فعل عنيف من طرف الحكومة ، وكانت النتيجة أن قامت الفتنة في كل مكان وتعددت القلاقل وفسدت الحالة الاقتصادية بصفة عامة. فلا غرابة ان اصبحت تلك النقوش قليلة في عهد الامبراطور ديوكليسيان ، نظراً لارتباك الحالة في البلاد من الوجهة الاقتصادية والمعنوية

ومها يكن من أمر فقد استوطن الرومان بلاد المغرب وصمموا على استعمارها وقدموا كل مساعدة للمعمرين من أبناء جلدتهم طالبين منهم أن ينتجوا كل ما من شأنه أن يسخر لتموين العاصمة فلم يمض زمن طويل حتى أصبحت افريقيا - على حد تعبير اللاتينيين أنفسهم - مطميراً لرومة (Romae Graniarum) تمدها بقدر وافر من المحصولات الزراعية على اختلافها كالحبوب وغيرها والفواكه والخمور (1)

(1) يذكر ذلك الكاتب اللاتيني بلين الاصغر (Pline le Jeune) .



اروقة رومانية بوليلي

والصوف واللوح والمرمر ⁽¹⁾ والزياتين .
ونذكر بهذا الصدد أن رومة كانت تعتمد على افريقيا
بنوع خاص فيما يرجع الى امدادها بالحبوب ⁽²⁾ والزياتين مما
يدلك على أن البلاد كانت ولا تزال فلاحية قبل كل شيء
أما الحبوب فقد كان الأهالي من الفلاحين يجعلون منها في
آخر كل موسم فلاحى ثلاثة أقسام: قسم يحتفظون به لتموين
السكان ، وقسم يدفعونه لخزائن الحكومة المحلية كالخراج ،

(1) وكان الرومان يستخدمونه بنوعيه الابيض والاحمر في صنع التماثيل
على اختلافها

(2) ان النقود التي كان الاهالي يتعاملون بها أيام تغفل الاستعمار الروماني
في افريقيا الشمالية كانت تحمل في أحد وجوها سنبلة أو سنبلتين من القمح ،
وفي ذلك دليل قاطع على ان البلاد كانت تنتج كمية هائلة من الحبوب .

وقسم ثالث يبعثون به الى ايطاليا على طريق ميناء أوستي
(Ostie)

أما الزيوت فكانت رومة تستورد منها كمية عظيمة لضرورة
الطبخ والانارة ، واذا احتجنا الى دليل على صلاحية أراضي
المغرب لانتاج الزيتون ، فما علينا الا أن نسرّح الطرف في
نواحيه المكتسية حتى اليوم بأشجار الزيتون الكثيرة لنقتنع
بصحة هذا الرأي ومن البراهين القاطعة على أن البلاد كانت
غنية بزياتينها في أيام الاحتلال الروماني كثرة الأرحاء الزيتية
التي عثر عليها في سائر أنحاء البلاد والحوابي الكثيرة التي كانت
تستخدم لحفظ الزيتون والتي وجدت في كل مكان برومة
وايطالية وبقية الامبراطورية الرومانية (1)

أضف الى ذلك أن افريقيا الشمالية كانت تمد رومة
بالحيوانات كالخيل والبغال والوحوش الضارية التي كانت تحتاج

(1) علاوة على هذه البراهين الاركيولوجية يحسن بنا أن نسوق للقارىء
الكريم في هذا المقام ما قاله ابن عبد الحكم في كتابه « فتوح افريقيا
والاندلس » ، فقد جاء في الكتاب المذكور بالحرف « حدثنا عبد الملك بن
مسلمة حدثنا ابن لهيعة ان عبد الله بن سعد هو الذي افتتح افريقية ، ونقل
هو الذي افترع افريقية ، وأنه كان يوضع بين يديه الكوم من الورق فيقال
للأفارقة من أين لكم هذا ؟ قال فجعل انسان منهم يدور كالذي يلتمس
الشيء حتى وجد زيتونة ، فجاء بها اليه ، فقال من هذا نصيب الورق ،
قال وكيف ؟ قال ان الروم ليس عندهم زيتون ، فكانوا يأتوننا فيشترون
منا الزيت ، فنأخذ هذا الورق منهم » (من صفحة 46 الى 48) .

إليها العاصمة لتنظيم أعيادها وحفلاتها الكبرى لكن ليس
معنى هذا كله أن البلاد كانت خالية من كل صناعة ، بل
المعروف اليوم أن في كثير من المدن الإفريقية كان الأهالي
يزاولون صنع الأقمشة الغليظة والأواني الطينية على اختلافها
والمصابيح الزيتية ، وكانت صناعة المصابيح رائجة بنوع
خاص في مدينة شرشال (القيصرية) ، وكانت التجارة
نافقة مزدهرة تتناول المصنوعات الوطنية والمنتجات الزراعية
وكانت هذه المنتجات تصدر - كما أسلفنا - إلى مدينة رومة
التي كان سكانها يستمدون على وجه التقريب من المغرب كل
ما يحتاجونه من ضروريات حياتهم اليومية كالحبوب والزيوت
التي كانت العاصمة الرومانية تستورد كمية هائلة منها في كل



الشارع الشمالي الشرقي بوليلي
(مكتب الآثار بالمغرب)

سنة هذا ومن المعروف ان سكان العاصمة كانوا ينفقون معظم أوقاتهم في الحفلات والألعاب ، وقد كانوا مولعين بها الى حد بعيد (١) فكان من الطبيعي والحالة ما ذكر ان يعتمدوا في كل ما يحتاجون اليه على المغرب ، ومن الطبيعي أيضاً أن يروا أنفسهم مهددين بالمجاعة والموت متى ما حاول الأهالي قطع العلاقات التجارية مع أم الوطن والواقع ان الرومانيين كانوا يعيشون عالة على الامبراطورية الرومانية ، يستوردون من خيراتها كل ما يشاؤون ثم يؤدون ثمن تلك الواردات بمحصول الضرائب الكثيرة التي كانوا يستخلصونها من الأهالي بلا هوادة ولا شفقة

على أن السكان في افريقيا الشمالية استفادوا من المعاملات التجارية التي سبقت الإشارة اليها، كل بحسب درجته الاجتماعية ومستواه ، سيما وقد تم للرومان ما كانوا يريدون اذ تمكنوا من اقرار الأمن في كل ناحية وقع احتلالها من طرفهم حتى انتشر السلام الروماني (Pax Romana) في طول البلاد وعرضها

ومن ثم تعددت العمارات وتضخمت الثروات الفردية فارتفع مستوى المعيشة في الجملة ، الأمر الذي دفع بالكاتب الكاثوليكي ترتوليان (Tertulien) الى أن يقول لقد أصبحت الأرض تزرع اليوم بصورة أحسن وأكثر فائدة من

(١) من الأقوال السائرة عندهم الجملة التالية أي شيء يطلب الشعب من الحكومة ؟ الخبز والألعاب Panem et Circences !



تأطير مائية وضعها الرومان لجلب الماء لسكان مدينة القيصرية بالجزائر

ذي قبل ، لذلك فهي أغنى مما كانت عليه ، في كل مكان.
ترى المنازل تنشأ بكثرة ويتعدد السكان ويتضاعف عدد القرى
والدساكر، فأبي دليل بربك أقوى من هذا على ازدياد المخلوقات.
وتكاثرهم ؟ لقد ناءت بنا الأرض وكادت منتوجاتها أن لا تفي
بضرورياتنا (١)

ان أقل ما يستنتج من كلمة ترتوليان السابقة تكاثر عدد
سكان المغرب أيام كانت الامبراطورية الرومانية مزدهرة
ويمكن تقدير هذا العدد بسبعة ملايين نسمة كانوا يعيشون في
افريقيا الشمالية اذ ذاك لكنهم لم يكونوا كلهم يعيشون
عيشة واحدة ولا كانوا ينتمون لطبقة اجتماعية واحدة ، فقد
جعلت رومة من هؤلاء السكان ثلاث طبقات متفاوتة متباينة.
من حيث عدد أفرادها وطرق معيشتها وبمجموع الحقوق
والواجبات التي كانت تتميز بها

- 1 - الطبقة العليا ، وتشتمل على الرومانيين أنفسهم
(Les Romains) أو المتصفين بالجنسية الرومانية
- 2 - الطبقة الوسطى ، كانت تشتمل على اللاتينيين
(Les Latins) ، وهم الذين كانوا يسكنون بإيطاليا خارج
ناحية معينة اسمها اللاسيوم (Latium)
- 3 - أما الطبقة السفلى والأخيرة فكانت تشتمل على
بقية المواطنين ، وقد أطلق الرومان عليهم كلمة الأجانب

(١) راجع « جنصريق ملك الوندال » الاستاذ قوتبي (ص ١١٩) .

(Pérégrins)

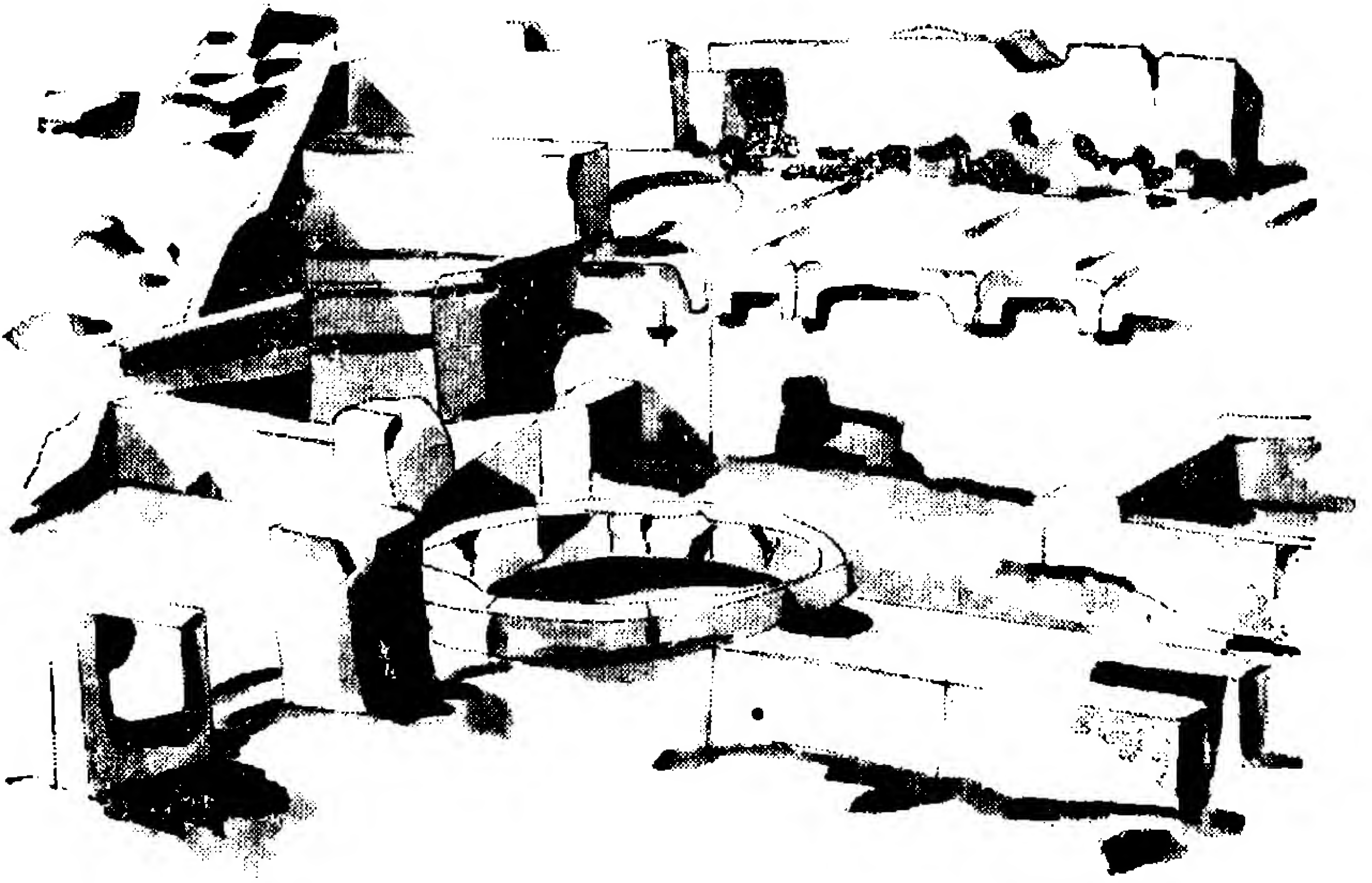
كذلك كانت تفعل رومة ، تجزىء وتفرق حتى تضمن
لنفسها السيطرة على الجميع (1)

وكان أهل الطبقة الأولى يتمتعون بجميع الامتيازات
والحقوق دون غيرهم ، وكان أصحاب الطبقتين الأخيرتين
يسعون بطبيعة الحال بكل وسيلة ممكنة لينتقلوا من طبقة الى
طبقة أعلى منها. وفعلاً فقد تمكن بعضهم بفضل مجهوداتهم الخاصة
وأعمالهم المتواصلة من الارتقاء من رتبة أجنبي الى رتبة فارس
وبعد ذلك من الحصول على العضوية في مجلس الشيوخ (2)

ومن خصائص السياسة الرومانية انها ميزت بين المدن
والقرى كما ميزت بين الأشخاص والأفراد ، فقسمتها قسمين
على الأقل رومانية ومنها ما أعفى من دفع الضرائب كلها
أو بعضها ، ولها الحق جميعها في المشاركة في الانتخابات ،
وبربرية وهي مختلفة الأنظمة لا تتمتع بشيء من الحقوق المخولة
للمدن الرومانية. وكان لكل مدينة مجلس بلدي من خصائصه
وضع ميزانية البلدية والسهر على مصالح المدينة وكان من
عادة أعضاء المجلس أن لا يرشحوا أنفسهم للعضوية الا بعد ما
يقدمون للشعب عدة حفلات لكي يحملوه على مؤازرتهم أثناء

(1) التفرقة من أجل السيادة على الجميع طبقاً للمثل اللاتيني القائل فرق
تسد Divide ut impeses .

(2) « افريقيا الشمالية في التاريخ » (ص 83) .



رحى زيتية رومانية بتيبة Madaure

الانتخابات وكان العضو المرشح لمجلس البلدية مسؤولاً أمام البلدية فيما يتعلق بجمع الضرائب ، حتى اذا تأخر الأهالي عن دفعها اضطر لادائها من عنده مكانهم ، لذلك كان يشترط في المرشح للمهمة الآتفة الذكر أن يكون غنياً قبل كل شيء .
أما الاجتماعات العامة فكانت تعقد بساحة المدينة الكبرى المسماة عندهم بالفروم (Forum) اذ كان الشعب الروماني يتجمع فيها للاستماع الى القرارات الحكومية وكذلك المشاركة في الانتخابات

ومن خصائص السياسة الرومانية أيضاً أنها كانت تحمل

الاهالي على ملازمة المدن وتحجب اليهم الحياة الحضرية ، فكان من نتيجة هذه السياسة الغريبة أن تعددت المدن بعدما هاجر السكان من القرى والبادي الى المدن يعمرونها
هذا وأوضح دليل على تفنن الرومان في سياسة الشعوب وقدرتهم على قيادة الجماعات أن أرقى الأمم الأوربية في هذا العصر نسجت على منوالهم واقتبست من أساليبهم السياسية والادارية

وظلت رومة مهيمنة على افريقيا الشمالية بأسرها والحالة هادئة مطمئنة الى أن ظهرت الديانة المسيحية ، وانتشرت أشعتها في أنحاء المغرب كله ، فساءت الحالة بصورة عامة حتى أصبحت تبعث على القنوط والانكسار ، والواقع أنه ما كادت الديانة الجديدة تنتشر في الغرب حتى تهافت عليها الأهالي وتمسكوا بتعاليمها لالشيء إلا لأنها كانت تأمر بالأخوة والمساواة وتحض على التشبث بمكارم الأخلاق والواقع أن حالة البربر كانت قد ساءت مع الرومان الى درجة أن ضاقت بهم الأرض بما رحبت وتعذرت عليهم أسباب المعيشة نظراً لما لحقهم من الاضطهاد على يد أولئك المستعمرين وسوء معاملة وهذا الذي يعلل موقف البربر من الدين الجديد وتهافتهم عليه بحيث يمكن أن نقول اذا كان المواطنون الأصليون قد أقبلوا على الديانة المسيحية بهذه الدرجة من التلهف ضاربين بوثنية الرومان عرض الحائط ، فما ذلك الا لأنهم كانوا يأملون أملاً قوياً في التخلص من براثن الاستعمار الروماني بواسطة

هذه الديانة الجديدة

وأحس الرومان بمفعول هذه المبادئ الثورية في عقول الأهالي ، فراحوا يضطهدونهم ويعذبون كل من سولت له نفسه أن ينتحل المسيحية ديناً ، فساءت الحالة السياسية في البلاد ، ومما زاد في الطين بلة اضطراب الحالة الاقتصادية وهبوط مستوى المعيشة تبعاً لتعدد القلاقل واضطهاد الأهالي الآمنين . ولم يلبث الامبراطور قسطنطين أن يتفطن لخطورة الموقف ، فيوطد العزم على جعل حد لتلك الحالة المنكرة ، ويعتنيق الدين المسيحي هو نفسه ، وتصبح بذلك للديانة المسيحية صبغة رسمية

غير أن الامبراطور لم يهتد الى موطن الداء من ذلك الجسد المريض ولم يعمل على التخفيف مما كان يعانيه الأهالي من آلام وأسقام ، فبقيت حالتهم المادية والاجتماعية كما كانت وظل الرومان يسخرونهم لمصالحهم الشخصية وبعد الصبر الجميل تطير حمية البربر ، فيعرضون عن الديانة المسيحية التي كانوا يرجون من ورائها قبل ذلك تحقيق مطالبهم السياسية ، ولم تلبث أن تنتشر الفتنة في طول البلاد وعرضها على يد الزعيم فيرموس Firmus - 371 ب. م. - الذي راح يحجوب البلاد طولاً وعرضاً لاهياء ضمائر المواطنين ويتولى بنفسه تنظيم المظاهرات ضد رومة التي أرادت أن تبتلع شعباً بربرياً بأسره وتقضي على شخصيته وآماله

والواقع أن الرومان الغاضبين لم يتركوا وسيلة تؤديهم الى

الاستيلاء على العنصر البربري إلا سلكوها ، فأجبروا البرابر
على الخدمة العسكرية وقدموا لمن أراد التجنس منهم بالجنسية
الرومانية كل مساعدة ، مؤملين من وراء ذلك كله ابتلاع
العنصر الأهلي ، ولم تقف الدولة الرومانية عند هذا الحد ، بل
تعدته الى نشر الثقافة الرومانية بكل الوسائل ، ففرضت
استعمال اللغة اللاتينية بصورة رسمية في المحاكم والمدارس القائمة
اذ ذاك في المدن الكبرى كقرطاجنة وسرتا وشرشال ،
وأهملت بطبيعة الحال لغة أهل البلاد القرطاجنية
على أن المؤرخين يخبروننا بأن الأهالي ظلوا - رغم ذلك
كله - محتفظين بلغة قرطاجنة طيلة الاحتلال الروماني خصوصاً



ساحة « الكابيطول » بوليبي (المكتب المغربي للأثار)

في البوادي ، أي في معظم البلاد المغربية وهذا أندي حمل بعضهم على القول بأنه إذا كان البرابرة قد أقبلوا فيما بعد ، بتلف عظيم على اللغة العربية وتعلموها بسهولة مدهشة فما ذلك إلا لأنهم كانوا - عند دخول العرب - يستعملون اللغة البونيكية بصورة عادية جيدة ومعلوم ان أوجه الشبه كثيرة بين اللغة القرطاجنية واللغة العربية

ولم تكن مقاومة المغاربة للمحتل الأجنبي إلا فيما يتعلق بلغة التخاطب ، بل المتتبع لأحوالهم يرى أن معظم الأهالي كانوا - اذ ذاك - معرضين عن الحضارة الرومانية نظراً للأساليب التي كان الرومان يستعملونها في نشرها ، معتمدين في بعض الأحيان يجبالهم ، محتفظين دائماً بالتقاليد الموروثة عن الأجداد

وهل معنى ذلك أن احتلال رومة لهذه الديار مدة من الزمان لا تقل عن خمسة قرون جعلها لا تتأثر بالمرّة في الأهالي؟ كلا ! انما الذي نريد اثباته في هذا المقام هو أن المدنية الرومانية بصفة عامة لم تتعد المدن الشهيرة ولم تتأصل جذورها في التراب المغربي ، كما يذهب الى ذلك بعض المؤرخين ، وإلا فلم يا ترى اضمحلت سريعاً فكانت أثراً بعد عين؟!

والحقيقة التي لا جدال فيها أن تأثير الحضارة الرومانية لم يتعد طائفة قليلة من أعيان البربر الذين بهرهم بريق تلك الحضارة ، فراحوا يكرعون من معينها ، وأقبلوا اقبالاً على درس اللغة اللاتينية ، على أن تلك الأوساط المثقفة هي

الأخرى لم تنس لغتها الوطنية طيلة أيام الاحتلال الروماني. وانما كانت تفضل استعمال اللاتينية أو اليونانية - دون القرطاجنية - اعتقاداً منها بأفضليتها واقتداءً بالمتغلبين وتشبهاً بهم ليس إلا. ولا غرابة اذا وجد اذ ذاك في الطبقة المثقفة من الأهالي الخطيب المفوه ، والكاتب البارع ، والقسيس الصادق ، والفيلسوف المتبحر في العلوم ، نظراً لما للبرابر من مواهب عقلية لا تنكر

والذي يتتبع تلك الفترة من الزمان بالعناية والدرس النزيه يرى أن الآداب اللاتينية قد انحطت كثيراً في افريقيا الشمالية بتعدد القلاقل والاضطرابات الناجمة عن انتشار الديانة المسيحية رغم ما كانت لهذه الآداب من قوة ومثانة في السابق، والدليل على ذلك أن جمهور الأدباء والكتاب حينما تصدوا لترجمة الانجيل ، وأرادوا أن يعبروا عما كان يخلج في صدورهم من أفكار وخواطر تتعلق بالديانة الجديدة اضطروا الى استخدام تراكيب عبرانية في كتابتهم واختلاق جمل وألفاظ من عنديتهم تارة أو استعمال كلمات قديمة أعطوها معاني جديدة تارة أخرى. وكل ذلك بالطبع أحدث نوعاً من الاضطراب في اللغة أدى بها الى الضعف والانحلال

غير أن الحالة الأدبية ما لبثت أن تطورت بعد ظهور الديانة المسيحية بقرنين على وجه التقريب ، فتحسنت في أقل ما يمكن من الزمان بفضل كتّاب وأدباء وطنيين وغيرهم ، امتازت كتاباتهم بصبغة دينية وروح قوية كانوا يرومون من.

ورائها الدفاع عن الديانة المسيحية

وها نحن نذكر لك - فيما بعد - على سبيل الإشارة
فحسب ، بعض أولئك الأعلام الذين يحق للمغرب أن يعتز بهم
ويباهي غيره من الأمم فهذا ترتوليان الكاتب الكاثوليكي
الذائع الصيت ، ازداد بمدينة قرطاجنة ما بين سنة 150
و 160 م ، فبرهن على نجابة فائقة وهو يدرس علم البيان ،
ثم تخصص في الحقوق ، فكان قسيساً ، وبعد ذلك رحل الى
رومة حيث توفي سنة 222 م ولقد ألف ترتوليان (Tertulien)
كتباً عدة ضد الزنادقة واليهود يريد بها مكافحة المذهب الوثني
واظهار براعة الدين المسيحي: ذكاء وقاد وعقل واسع وكتابة
قوية متينة ، ذلك هو الكاتب القسيس ترتوليان الذي سارت
بذكره الركبان

ومن زعماء الفكر المغربي في العصر القديم القديس الفيلسوف
اوغيستان (Saint. Augustin) وكانت أمه بربرية ، ولد
اوغيستان عام 354 م وتوفي سنة 430 بمدينة عنابة (Hippone)
وهو يدافع عنها دفاع الأبطال ، أيام كانت محاصرة من قبل
الوندال (1) ، وقد اشتهر اوغيستان في بدء حياته بعيشة
متهتكة ماجنة ، لكن ما لبث ان تاب الى الله وأصبح من
الزهاد المتقشفين .

وكان القديس اوغيستان ثاقب الذهن ، واسع الفكر ،

(1) راجع الفصل السادس ، (ص 99)

غزير العلم ، ارتوى من مبادئ الديانة المسيحية ، فأصبح من أكبر القسيسين ورجال الكنييسة الكاثوليكية . وقد كرس حياته الصالحة في مقاومة الزنادقة ومكافحة المذاهب الأخرى التي من شأنها أن تقف حجر عثرة في سبيل تقدم الديانة المسيحية ؛ وكان يستعمل سائر الوسائل لمحاربة المذهب الدونتاتي (Donatisme) الذي كان يرمي الكاثوليكين بتسرب الضعف إلى عقيدتهم الدينية كما كان يحارب المذهب المانكي (Manichéisme) والمذهب الآري الذي سينتعله ، فيما بعد ، القائد جنصريق ، ملك الوندال

وقام من جراء ذلك خصام عنيف بين الكاثوليكين وأنصار المذاهب الأخرى أذكى نار العداوة بين الفريقين وحمل كلا منها على تحرير المؤلفات العديدة للدفاع عن مبادئهم ومعتقداتهم ؛ فنشأت من ثم حركة أدبية مباركة ؛ وخاض أوغيستان غمار المعركة بقلمه ، وحمل نفسه على تحرير كتب عديدة في الموضوع تمتاز بقوة العبارة ومتانة الأسلوب ، أشهرها اعترافاتي (Mes Confessions) ؛ وقد عرض فيها نبذة من حياته الغربية متعرضاً للكلام على تلك الأزمة الدينية التي كانت سبباً في تطور اعتقاده بالصورة التي سبق ذكرها . وله أيضاً « مدينة الإله » (La Cité de Dieu) وهو كتاب يشتمل على 22 فصلاً أراد بها القديس أن يظهر فضل الآخرة على هذه الحياة الدنيا . وبكلمة واحدة نستطيع القول بأنه لم يوجد هناك - في الزمن القديم بافريقيا - مواطن



تمثال غلام بربري او روماني توج رأسه بالاكليد
(المكتب المغربي للآثار)

بلغ من الثقافة اللاتينية ما بلغه القديس أوغويستان ولا كانت
له تلك المرتبة التي تبوأها هذا الكاتب العبقرى العظيم !
وبما أن ازدهار الفنون الجميلة ليس إلا نتيجة من نتائج
الحركة الفكرية ، ومظهراً من مظاهر الثقافة العامة يجوز
لنا أن نقول ان الحياة الفنية في أيام الاحتلال الرومانى بالمغرب
كانت مزدهرة نشيطة وقد ظهر ذلك النشاط في صناعة
الحزف ، وتشيد الهياكل المزينة بالأعمدة الرخامية والتماثيل

الجميلة ، ووضع القناطر المتعددة الأقواس الجميلة المنظر وبناء
المراسح والحمامات المزينة بالفسيفساء ، وصنع التوابيت
ومشاهد الأموات

ويتجلى ذلك الفن الموصوف بالعظمة والجمال خاصة في
تلك التماثيل المتناسقة الأضلاع المنبثة في سائر أنحاء افريقيا من
سوسة الى ويلي بالمغرب الأقصى ، سواء كانت من البرنز
والمرمر الجيد البراق ...

ولقد تطور الفن الروماني بعد ذلك تطوراً محسوساً ؛
فاستخدمه الرومان في بناء منازل للسكنى تتوفر فيها شروط
الراحة ويجدر بنا أن نقول ما دمنا نتحدث عن كيفية تشييد
المنازل أن التصميمات والأساليب المعمارية التي نعمل بها في بناء
منازلنا الأهلية هي التي كان الرومانيون يعتمدونها في تشييد
منازلهم في افريقيا الشمالية ؛ وهي على كل حال مناسبة
لاقليم البلاد وهوائها الحار وكان الرومان يسعون في تجميل
منازلهم بالأروقة والأعمدة الرخامية الرقيقة والفوارات
والبساتين الغناء وبكل ما من شأنه أن يضمن لهم عيشة
هنيئة مريئة ويؤمنهم من حرارة البلاد الطبيعية .

حقاً ان نظرة واحدة لتلك الأعمدة الرخامية ذات التيجان
المزخرفة المورقة لأعظم دليل على مدنية الرومان ورسوخ
قدمهم في الفن المعماري الذي اعتمدوه خاصة في هذه البلاد
لكن من المقرر ان الدولة إذا اتسعت ممالكها وأصبحت



ساحة دار رومانية مزينة بأعمدة رخامية

جميلة بوليلي

(مكتب الأبحاث بوليلي)

هذه الممالك والأطراف بعيدة عن المركز ⁽¹⁾ فلا بد من أن يتسرب اليها الضعف والفساد « وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم » ⁽²⁾ سرعان ما يتصدع بسببها بنيان الدولة ؛ ثم لا يلبث أن يتضعض جملة ، فيكون مصيره الفناء والاضمحلال . كذلك وقع برومة عندما طرقتها الشيخوخة وقد جعلت

(1) مقدمة ابن خلدون ص (162) .

(2) نفس المصدر ص (199) .

الامبراطورية الرومانية تسترد حياتها وتشعر بشخصيتها كأنها تبرز شيئاً فشيئاً إلى عالم الوجود. وما هي إلا عشية وضحاها حتى اندرست تلك المدنية الهائلة فأصبحت أثراً بعد عين... والذي يدعو إلى الاستغراب هو أن عقب نزول الجحافل الوندالية بالتراب المغربي - بعد احتلال روماني دام ما يقرب من ستة قرون - لم يبق أي أثر روحي ذي بال يدل على عظمة رومة وأيامها الزاهية اللهم إلا بعض الأطلال الباكية... أليس في زوال هذه المدنية من المغرب بسرعة ما يعطي الدليل على أنها لم تؤثر في الأهالي تأثيراً قوياً كما يزعم بعض المؤرخين؟!

أجل ! ان أمة لا تحسن التصرف في شؤونها ولا في شؤون أولئك المغلوبين على أمرهم من قبلها ثم « لا تزال تتلون ببعوائد السترف والحضارة »^(١) فتتنفس فيها إلى أبعد ما



أواني طينية بوليلي

(١) مقدمة ابن خلدون ص (١٦٩) .

تستطيع ، لا ينفك أن يزول سلطانها وتضمحل آثارها ،
وذلك لا لشيء إلا لأن « الله عز وجل جعل للدول أعماراً
كالأشخاص إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون . » (1) « سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد
لسنة الله تبديلاً (2) »

(1) مقدمة ابن خلدون ص (171) .

(2) من سورة الفتح .

1 — الديانة المسيحية بالمغرب

كان الرومان كغيرهم من الشعوب يعبدون الأوثان ، وهم بها يرمزون الى آلهة جمّة ، وكان البربر يعبدون كذلك أوثاناً ورثوها عن قرطاجنة الأولى كبعل وثانيت ؛ ولما استقر الرومان قدمهم بهذه البلاد أخذوا بعض أصنام البربر وسموها أسماء رومانية وكذلك أخذ البربر بعض أصنام رومة وسموها أسماء بونيكية . وكان البربر في الغالب يعكفون على عبادة القوات الطبيعية كالغابات والأحراش والأنهر بينما كان الرومانيون يعبدون كل صنم أينما وجدوه سواء بالشرق أو بالغرب .

ظهرت بالشرق أنوار الديانة المسيحية في أول عهد القيصرية ، فاعتنقها جم غفير من الرومان وتسربت بواسطتهم الى المغرب وقدم مبشروها اليه ؛ فأعجب البربر بهذا الدين الأمر بالاخوة والمساواة ومكارم الاخلاق وتسارعوا الى الدخول في دين الله أفواجاً وأصبحت له بيع صغيرة منبثة في كافة أنحاء البلاد المغربية .

وكيف يمكن أن يعامل الولاة والكبراء تلك الديانة وهم أصحاب السلطة والجبروت وبيدهم الحل والعقد والناس أمامهم عبيد مسخرون ، والقوي يملك كل شيء والضعيف لا يملك شيئاً ، وتلك الديانة تريد أن تسوي بينهم وتجعلهم أمام ربهم اخواناً لا سيد ولا عبد ؟ انزعجوا من ذلك الأمر وأخذوا يثبتون العراقيل في الديانة الجديدة ؛ فما أغنت عنهم تلك العراقيل شيئاً واستفحل أمرها ؛ فأخذوا ينكرون بالمعتنقين تنكلاً شديداً ، ولم يقفوا أمام أي فظاعة أو قوة فكانوا يسجنون المسيحيين سواء بإيطاليا أو بالمغرب ؛ ثم يجمعون الناس في يوم مشهور بإحدى الملاعب الكبيرة ، ويخرجون أولئك النساء رجالاً ونساء في وسط الملعب ويطلقون عليهم الأسود الكاسرة الجائعة ؛ فتمزقهم إرباً إرباً وتأكلهم على مرأى ومسمع من الجمع المتفرجة ؛ كان أولئك الشهداء ، شهداء وحشية الانسان ، يموتون بكل جلد وثبات

وما كانت تلك المقاومة العظيمة لتوقف سير الديانة الجديدة أو ترجعها على أعقابها ، بل استمرت السوقة معتنقة لها ، وازداد انتشارها ، وان هي إلا مدة وجيزة وإذا ببعض الحكام الرومانيين يعتنقونها ، وإذا بالراهب القديس سيبريان (Saint - Cyprien) الروماني يجمع مؤتمراً دينياً بقرطاجنة يحضره 10 من رؤساء الدين المسيحي ، واستمر توارد الناس أفواجا واستمر الاضطهاد حتى تولى الامبراطورية ديو كليسيان ، فعامل المتدينين معاملة وحشية لم يروا التاريخ أفظع منها حتى

أطلق المسيحيون على أيام حكمه اسم « عصر الشهداء » ثم حدث بايطاليا خلال القرن الرابع حادث جلل ألا وهو قيام الامبراطور ماكسونس (Maxence) على الامبراطور قسطنطين ، فاشتعلت بين الفريقين نيران حرب هائلة وأخيراً استتب لقسطنطين الأمر عام 312 وبادر عندئذ باعلان المسيحية ديانة رسمية للدولة إذ كان المسيحيون أعوانه وأنصاره ، ثم نقل كرسي مملكته الى بزنطة ودعاها القسطنطينية نسبة اليه ؛ وما كادت المسيحية تعلن ديانة رسمية حتى فر كثير من معتنقيها البربر ، وهم انما اعتنقوها قراراً من سلطان الرومان وليتخذوها وسيلة لنزع السلطة الرومانية ، فلما أصبح الرومانيون أنفسهم يعتنقونها طفق البربر يفتشون على وسيلة أخرى ، ووجدوا ان هذه الوسيلة هي ايجاد خلاف في الدين. فعندما مات أسقف المغرب المدعى مانسوريوس وقع الخلاف في تسمية خليفته وترشح لذلك الراهب ساسليان ، لكن أنصار الفتنة أبوا الموافقة على هذه التسمية وكان زعيم المعارضين راهب قرية بربرية يدعى دونات (Donat)

وتألف عندئذ جند من أشد الدوناتيين تعصباً وأخذوا يجوبون أطراف البلاد بدعوى ضم جميع المسيحيين اليهم ، وكان أغلب هؤلاء الدوناتيين من العبيد الآبقين ومن لا يملكون في هذه الدنيا غير أجسامهم ، فاتخذوا لأنفسهم مذهباً اجتماعياً هو خليط من الشيوعية والفوضوية ويقولون انهم يريدون

ان يقرؤا مبدا المساواة التامة في الرزق بين الناس ، وأنهم لا يعترفون بأية سلطة (١) ، وطفقوا كذلك يتجولون وانقلبوا عصابة نهب وسلب ترتكب الفظائع وتقوم بالذبائح ، ولم يبق لهم من الصبغة الدينية أي شيء ، فتعقبتهم الجنود الرومانية وقطعت في آخر القرن الرابع دابرهم ، لكن الدوناتيين الحقيقيين وأغلبهم من أبناء البربر ظلوا محافظين على قوتهم وصلابتهم يترقبون سnoch فرصة للانقضاض على أعدائهم ، وكانت حركتهم سياسية ترمي الى التحرير ، متقمصة في ثوب حركة دينية

وأعظم أسباب هذا الهيجان هو النظام الاستعماري الروماني الذي ملك الأرض بيد ثلة منتفعة وحرّم منها جماعة الناس .

« قرطاجنة في أربعة عصور »

(ص . 114 - 117)

(١) وكذلك سيخرج البربر عن طاعة الخلفاء بعد الفتح الاسلامي لشمال افريقيا ، فيعتنقون مذهب الخوارج الذي هو قريب من مذهب الدوناتيين في المبدأ

2 — دمة على صديق

(كان للقديس اوغستان صديق حميم انتزع الموت من يده ؛ فلم يطلق القديس عنه صبراً ؛ فكتب هذه الكلمة يصف فيها حالته البائسة على أثر ذلك المصاب الاليم)

كنت إذ ذاك بائساً شقياً أبكي صديقي بكاء مرأ دون ان أجد عنه تسلية اللهم الا مرارة تلك الدموع. وأعتقد انه بقدر ما كنت أحنو عليه وأبالغ في محبته بقدر ما صرت بعد وفاته ، أمقت الموت وأخشاه - وهو الذي انتزع مني نتزاعاً - وأنظر اليه كأنه عدو قاس ، لا يلبث ان يفتك بجميع الناس حيث انه لعب بحياة عزيز عليّ

و كنت أتعجب من كون الناس لا يزالون يتمتعون بالحياة في حين لم يبق ذلك الذي كنت أحبه و كنت أعتقد ان الموت لن يسطو عليه أبد الدهر وبما اني كنت انظر لي وله كما لو كنا ذاتاً واحدة فقد صرت أعجب من بقائي على قيد الحياة بعد وفاة صديقي أجل ، لقد صدق في قوله من اذا

تصدي قديماً للتحدث عن صديق له وصفه بنصفه الآخر ، لقد كنت أشعر حقاً أن روحي وروحه شيء واحد خلق ليبت الحياة في جسمين مختلفين .

وهكذا سئمت الحياة اذ كرهت ان أعيش نصف الحياة ، وربما لهذا السبب كنت أخشى الموت على نفسي مخافة ان يزول بالمرّة ذلك الذي أعترته شديد محبتي وخالص مودتي .
معربة عن « اعترافاتي » للقديس اوغستان

بقلم المؤلف (ص - 112 - 113)

الفصل السادس

افريقيا الرومانية تحت سيطرة الوندال

(429 - 534) م .

من هم الوندال - المحافل الوندالية بالمغرب - معاهدة جنصريق مع امبراطور الشرق - نقض المعاهدة السابقة - من قرطاجنة الى رومة وتدخل امبراطور الشرق - خلفاء جنصريق - تدخل الرومان في شؤون المغرب - النظام الاداري في أيام الوندال - الحالة الأدبية في أيامهم - نتيجة الاحتلال الوندالي .

الوندال هم قوم من الجرمان كانوا يعيشون في أوربا ما بين نهري الأودير والفيسطول ⁽¹⁾ L'Oder et la Vistule . وقد

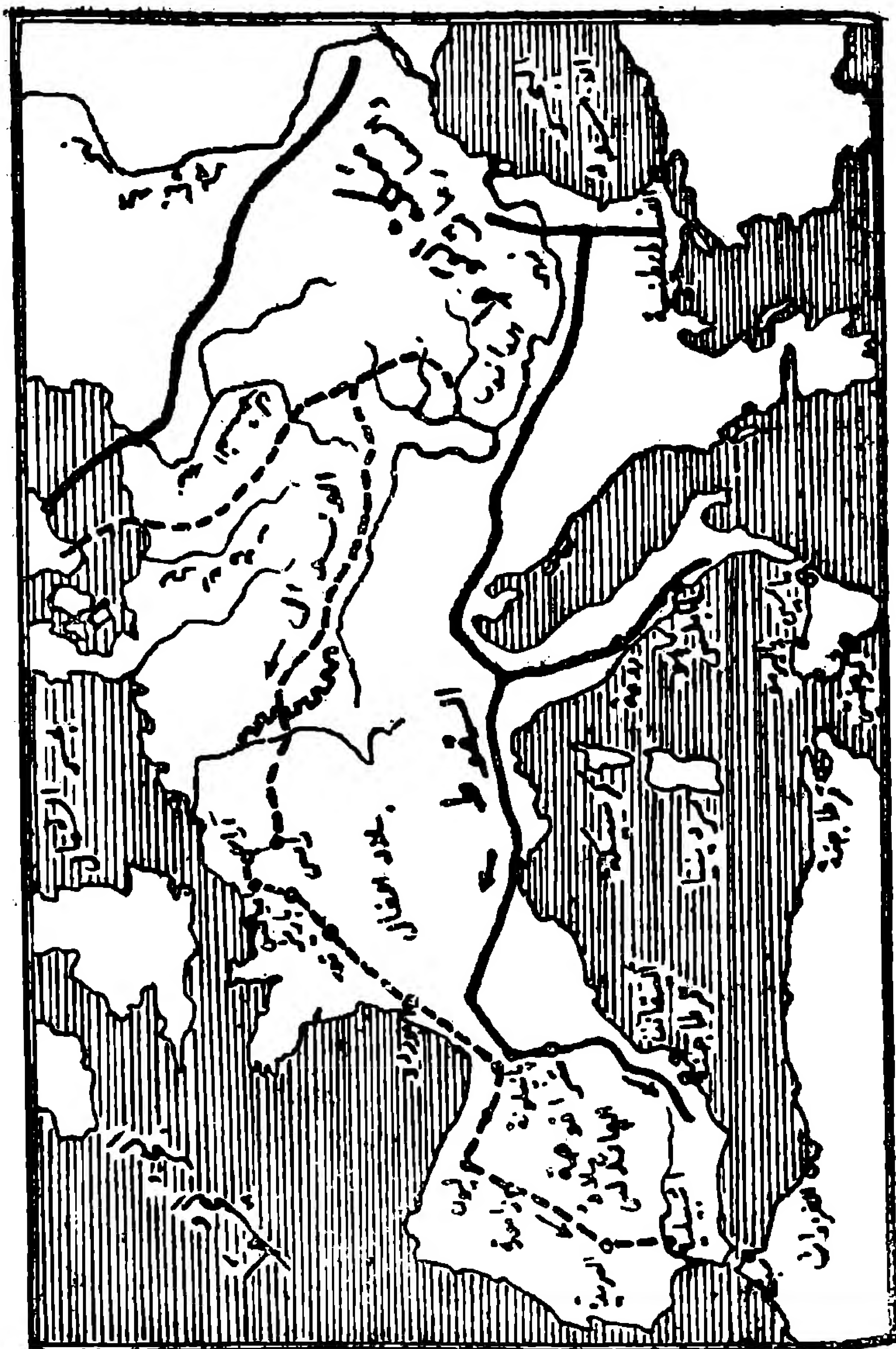
(1) أي في ناحيتي « بوميرانيا » و « بوسنانيا البولندية » الواقعتين في الجهة الشرقية من ألمانيا

أجمع المؤرخون على أن الوندال كانوا من الهمجية والوحشية
بمكان (١) ، بحيث كانت الامبراطورية الرومانية - في ابارت
عزها وسؤدها - لا تسمح لهم بالاختلاط بأفرادها فلما
جعل الضعف يتسرب الى أعضاء هذه الامبراطورية العريضة ،
بعد ما مال أصحابها الى الرفاهية والملذات ، استعان الرومان
بمحافل الوندال على حفظ الأمن في بلادهم واعتمدوا عليهم في
الدفاع عن كيانهم ، ومعلوم أن الأمم المتوحشة أقرب الى
التغلب على سواها نظراً لقوة العصبية فيها غير أن هذه
الجنود المستأجرة لم تلبث أن استحوذت على مقاليد الأمور
كلها ، وذلك ابتداء من القرن الخامس الميلادي ، ثم جعلت
قوتها تزداد بقدر ما كانت شوكة الرومان تضعف ، وظلمهم
يتقلص ، والسبب في ذلك أن الجيل « كلما نزلوا الأرياف
وتفننوا في النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش نقص من
شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداءوتهم » (2)

وقد انتشر الوندال بعد ذلك في طول الامبراطورية
وعرضها ، فاستولوا على بلاد الغال (La Gaule) وعبروا
جبال البرانس ، فاندبجت اسبانيا تحت نفوذهم وعرفت منذ
ذلك الحين ببلاد « الفاندلس » ، فلما فتحها العرب سموها

(١) ويكفي أن الأوربيين متى أرادوا أن يعبروا عن الوحشية بمعناها
الواسع الشامل استعملوا لفظة « فاندليسم » Vandalisme وهي مأخوذة من
كلمة « وندال » بالذات .

(2) مقدمة ابن خلدون (ص ١٣٨) .



الخط المتواصل بين الطريق التي مر بها القوط قبل أن يتخذوا إسبانيا موطناً لهم
 --- الخط المتقطع يشير إلى الطريق الذي ملكه الوندال في غزوهم للبلاد الأوربية
 قبل استقرارهم مولتا بالاندلس . «عن جنسريق ملك الوندال ص 72 - 73»

ببلاد « الاندلس » .

والواقع أنه منذ أن وطئت أقدامهم اسبانيا - حيث
خربوا كثيراً من الآثار الرومانية - والوندال ينظرون بعين
الطمع والاشتياق الى المدن الواقعة على شاطئ بحر الروم نظراً
لأن الحالة الاقتصادية كانت بالمغرب أحسن بكثير مما كانت
عليه في اسبانيا ، ولذا أصبحوا يتحينون فرصة لائقة تمكنهم
من اجتياز البحر والاستيلاء على الأراضي المغربية وجاءت
هذه الفرصة على يد الكونت بونيفاص (1) (le Comte
Boniface) الوالي على افريقيا من قبل رومة وكان
بونيفاص ، كما هو معروف ، في نزاع مع الملكة بلاسيديا ،
فأعلن الحرب على الجنود الرومانية المرابطة بالمغرب انتقاماً
لنفسه ، ولم يكتف بقطع العلاقات مع أم الوطن بل كتب الى
جنصريق - قائد الوندال - يعرض عليه القدوم الى المغرب (2) .
فهبى جنصريق جنوده العديدة ، ويحتاز البحر في ثمانين
الف شخص من بين رجال ونساء وأطفال وذلك سنة 429 م .
والحقيقة أن جنصريق لم يكن ينتظر الا هذه الدعوة للنزول ،

(1) كانت امرأته وندالية .

(2) يحسن بنا أن نذكر بهذه المناسبة كيف أن « الكونت جوليان »
(Le Comte Julien) الوالي على مدينة سبتة من قبل البزنطيين سيمى هو
الآخر سنة 711 م . في اسقاط ملك اسبانيا « لذريق » (Rodrigue) الذي
كان سبياً في النيل من شرف ابنته ، فيزين لوسي بن نصير غزو الاندلس ويحملة
على اقتحام الجزيرة انتقاماً من ملكها لذريق .

بل كان يستعد لهذه العملية منذ زمن بعيد وذلك لسببين اثنين ، أولاً لأن جنصريق كان - كما قدمنا - ينظر الى افريقيا وسهولها الخصبة بعين الشره والغبطة ، ثانياً لأن القوط ، سكان اسبانيا الأصليين ، كانوا من جبهتهم يعملون على اخراج الوندال من بلادهم ، وقد ضاقوا ذرعاً بهؤلاء الغزاة المتوحشين

ومما لا شك فيه أن دعوة بونيفاص شجعت جنصريق على النزول كثيراً. وكيفما كان الأمر فقد يعتبر هذا الجواز مغامرة لا نظير لها في التاريخ القديم ، باستثناء الرحلة الشهيرة التي قام بها حانون القرطاجني عبر البحر المتوسط والبحر المحيط ، ذلك أن جنصريق عبر من اسبانيا الى طنجة ثم توجه حيناً الى الساحل الجزائري على طريق البحر ونزل بمدينة الغزوات (Ad Fratres) (1)

ولم يسلك جنصريق - خلافاً لما يعتقد بعض المؤرخين - الطريق المعروف الواقع بين طنجة وتلمسان ، وذلك لخطورة المسلك وصعوبة الجبال الموجودة بين طنجة وناحية بني يزناسن والدليل على أن جنصريق اتخذ الطريق البحري للعبور الى المغرب هو انه كاد أن يأخذ الرومان على حين غفلة ، ولو كان قد اتجه نحو ممر تازة مثلاً - على تقدير انه لم يكن يجهل وجود هذا الممر - لسمع به الرومان ولاستعدوا لمقاومته ، الا أن

(2) بالفرنسية « Nemours » .

يكون الضعف والانحلال قد بلغا منهم في ذلك الزمان مبلغاً عظيماً .

وكيفما كان الأمر فبمجرد ما وطئت أقدام الوندال أرض موريطانيا الطنجية ، أقبل البرابرة عليهم وأعاتوهم على الرومان ولا غرابة في ذلك فقد كانت تجمعهم نعمة دينية واحدة هي عداوتهم للمسيحية (1) ، فضلاً عن الكراهة الطبيعية التي كان يكتنحها كل من الفريقين لأولئك الرومان المغتصبين

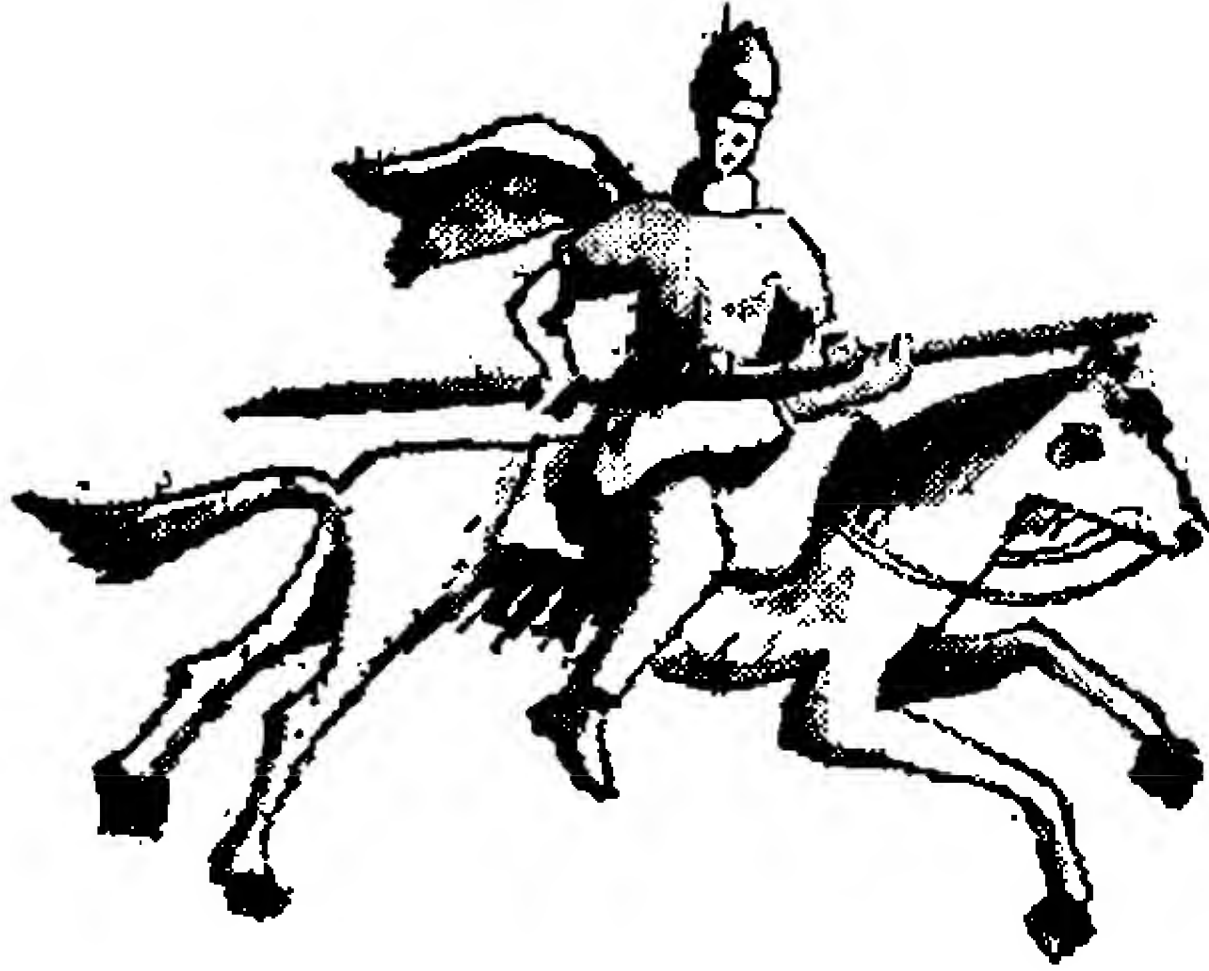
لكن الوندال ما لبثوا أن قاموا بأعمال وحشية ضد الأهالي ، فذبحوا الشيوخ وقتلوا الأطفال واقتهكوا الحرمات ، ولم تنته أعمالهم الإجرامية عند هذا الحد ، بل مدوا يدهم الأثيمة « الى النساء الحاملات يبقرون بطونهن ويستخرجون منها الأجنة يحطمون رؤوسها الصغيرة على الأرض ويرمون لحمها البشري الى الكلاب » (2)

وعبث الوندال بكل شيء ، فلم يتركوا من وراءهم الا البؤس والخراب (3)

(1) ومن المعلوم أن الوندال كانوا يدينون بالديانة الآرية التي وضعها الراهب « أوريوس » (Arius) ، الا أن هذا الأخير لم يكن يقول بالتثليث الذي هو عقيدة أساسية في الديانة المسيحية أما البربر فقد عرفنا أنهم تولوا عن الديانة المسيحية لما لم تتحقق آمالهم في الاستقلال .

(2) عن قرطاجنة في أربعة عصور (ص 125)

(3) نعتقد اعتقاداً جازماً أن هؤلاء المتوحشين هم الذين أتلفوا معظم الآثار الرائعة التي خلفها الرومان في بلاد المغرب . كما أحرقوا كثيراً من الغابات في الجبال والسهول .



فارس وندالي

ويعن النظر بونيفاص في تلك الأعمال الوحشية الاجرامية
فياخذه الندم - بعد قوات الزمان بالطبع - على ما صدر منه
مع الوندال ، ويريد أن يتدارك الأمر ، فيجهز جيشاً ، بعد
تسله الامداد من امبراطور الشرق ، ويحمل على حلفائه
بالأمس ، الا أنه ينهزم أمام مقاومة الوندال الشديدة ،
فيلتجئ الى مدينة ايبون « عناية Hippone » حيث يتولى
الدفاع عنها الكاتب العبقري القديس أوغستان ، ثم يموت
القديس سنة 430 م. فتسقط المدينة في قبضة العدو ولم
يسع بعد ذلك بونيفاص الا أن يلتحق آخر الأمر بمدينة رومة
- على أثر هذا الفشل المريع (1)

وفي أثناء ذلك كانت رومة - عاصمة الامبراطورية الغربية
قد بلغت من الكبر عتياً بحيث أصبحت تنظر الى حوادث

(1) كان الوالي بونيفاص أثناء ذلك قد نال عفو الاميرة « بلاسيديا ».

افريقيا المحزنة ولا تستطيع الدفاع عن حوزتها
أما امبراطورية الشرق فقد كانت لا تزال قوية فتية (1)
فرأت من المعقول ان تدراً عنها خطر جنصريق قبل أن
يستفحل أمره ، وهكذا بعثت الامداد للكونت بونيفاس
تعزيزاً لجانبه ، غير أن تلك المساعدة منيت كلها بالفشل
والخسران كما تقدم وبما أن جنصريق كان يعلم علم اليقين أن
نجاحه مرهون بعدم تدخل امبراطور الشرق في القضية
المغربية فقد بادر الى فتح باب المخابرة معه ، فانتهدت بعقد
ميثاق تنحصر مادته في النقطتين الأساسيتين التاليتين
أولاً - يلتزم جنصريق بعدم مهاجمة منطقة « أفريقيا » .
ثانياً - يعترف بوجوب دفع جزية سنوية لصاحب
القسطنطينية . ورجاء أن يقنع الامبراطور بصدق نيته وحسن
طويته بعث بولده هونيريك (Hunéric) كرهينة لدى
الامبراطور

لكن جنصريق كان يضرر لصاحبه السوء ، ولم يرض
بشروط المعاهدة السابقة رغم قساوتها الا ليتمكن من ضبط
جنوده وتدريبها استعداداً لذلك اليوم الذي سيعلن فيه نواياه
الحقيقية .

والواقع أنه منذ أن وقع على تلك المعاهدة وجنصريق

(1) وكانت عاصمتها القسطنطينية نسبة الى الامبراطور « قسطنطين »
(Constantin) .

يستعد حتى اذا ما اطمأن اليه الامبراطور ورد اليه ولده ،
أطلق العنان لجنوده ، فانقضت على منطقة « افريكا » ،
ودخلت قرطاجنة الرومانية - قرطاجنة ذات التاريخ الحافل
المجيد - فنهبتها نهياً وبعد ما طلب جنصريق من السكان
أن يسلموا اليه كل ما لديهم من نفائس وحلل ونقود ذهبية
استقر بقرطاجنة واتخذها قاعدة له (439 م) .

ولم يلبث الوندال عقب استقرارهم بمدينة قرطاجنة أن
دب الطمع في نفوسهم ، فأخذوا يفكرون في توسيع دائرة
نفوذهم وأنشأوا اسطولاً هائلاً جعل يبحر عباب البحر الأبيض
المتوسط . فاحتلوا جزر الباليار وسردينيا وصقلية وكورسيكا .
وفي بعض الأيام تسلم القائد الوندالي خطاباً من زوجة
الامبراطور الصريح فالينتينيان الثالث (Valentinien III)
تدعوه للقدوم الى رومة وتطمعه فيما تحتوي عليه خزائن
العاصمة من ذخائر ونفائس (١) ؛ وكانت العاصمة إذ ذاك في
حالة يرثي لها من جراء النزاع القائم بين أفراد العائلة المالكة ،
ولا من يغيثها ولا من يدرأ عنها خطر البربر او الوندال !
فيركب جنصريق بمجرد وصول الكتاب في اسطول يضم

(١) وقد قتل فالينتينيان هذا السيناتور (Sénateur) بيترون ماكسيم
رجاء ان يستحوذ على الملك ؛ وقد رغب بعد ذلك في التزوج من امرأة
القتيل لكن زوج الامبراطور الهالك لم تعد تفكر بعد تلك الفاجعة الا في
الوسيلة التي تمكنها من الانتقام وأخذ الثأر من بيترون على عمله الاجرامي
ورقاعته .

عدداً كبيراً من القطع البحرية ميمما التراب الايطالي؛ ويدخل العاصمة على رأس جيوشه العديدة؛ فينهب ويدمر ولا يترك بقعة هناك إلا أتلها وجعل أعلاها أسفلها؛ « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » (1)

ومن المحزن انه لم يوجد وقتئذ من بين أهل العاصمة بطل تأخذه الأنفة، فيضحى بنفسه في سبيل حرية الوطن كما فعل القرطاجنيون من قبل، وقد قاموا قومة رجل واحد، على الحرب البونيكية الثالثة، وضعوا بأنفسهم جميعاً في سبيل المصلحة القومية! لكن الرومان الصغار فضلوا الحياة على الموت وآثروا الذلة والمسكنة على الشرف والعز!

وتم لجنصريق ما كان يريد من نهب وسبي فقفل راجعاً الى المغرب، يحمل معه الامبراطورة التي استغاثت به وابنتيها: أودوكسي (Eudoxie) وبلاسيديا (Placidia) (2) وكذلك سبعين ألف أسير من بينهم عدد كبير من أعيان المدينة وشرفائها. وكان الامبراطور الشرقي ينظر الى تلك الحوادث كلها باهتمام زائد وعين لا تنام خوفاً من أن ينتقل وباء

(1) من سورة سبا.

(2) وقد تزوجت اودوكسي بهوفيريك نجل جنصريق، اما الاميرة بلاسيديا - وكانت على جانب كبير من الجمال - فقد كانت من حظ حاكم الامبراطورية الرومانية الشرقية.

الوندال المتوحشين الى المشرق كما انتشر شرهم في المغرب . ولما شاهد ما حل بالامبراطورية الغربية من للضعف وما أصيبت به من الذل والهوان صمم على الوقوف في وجه جنصريق ؛ فجهز اسطولاً ضخماً يحتوي على 600 قطعة بحرية تحت رئاسة الاميرال بازيليكوس (Basilicus) ؛ ثم جمع جيشاً عرمرماً أسند قيادته الى الجنرال هيراكليوس (Héraclius) غير أن الممارك التي دارت رحاها بين الروم والوندال سواء في البحر الأبيض المتوسط أم في طرابلس الغرب أسفرت جميعها عن انهزام روماني شنيع وانسحاب الروم من بلاد المغرب بصورة نهائية . أما الامبراطور فقد اكتفى - والحالة ما ذكر - بعقد اتفاقية مع جنصريق اعترف فيها بسيادته المطلقة على سائر بلاد المغرب

تم لجنصريق ما نوى ، وأنشأ مملكة واسعة الأطراف ، لكن خلفاءه لم يحسنوا التصرف فيها ولا الدفاع عن تلك المملكة العريضة التي لم تبق إلا مدة يسيرة حتي تصدعت أركانها على أثر وفاة زعيمها الأكبر ويظهر ان السبب في ذلك يرجع الى جو البلاد ، وهو جو متضاعف الحرارة راح يعمل عمله المعروف في ملوك الوندال المتأخرين بعد طول اقامتهم في هذه البلاد ؛ فكان ان مالوا الى حياة الرفاهية ؛ فأقاموا في المدن وضربوا مع الرومان المتأخرين بسهم في نعيمهم

وخصبهم كما وقع للرومان أنفسهم مع اليونان من قبل (1) ؛
وكان ايضاً ان أضاعوا شيئاً فشيئاً تلك العصبية التي كانت
السبب الأعظم في قيام دولة الوندال وغيرها من الدول
والممالك (2)

ومعلوم ان الدولة اذا فقد أهلها تلك العصبية التي يتحدث
عنها الفيلسوف ابن خلدون كان مصيرها ومصيرهم الموت
والاضمحلال . وسبب ذلك « أنهم يتنعمون فيما آتاهم الله من
البسطة ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية
حتى يصير ذلك خلقاً لهم فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في
الأجيال بعدهم يتعاقبها الى ان تنقرض العصبية فيأذنون
بالانقراض » (3) . وفعلًا لم تزد أمور الوندال الا ارتباكاً بعد
وفاة جنصريق ؛ أما البربر فكانوا ينظرون في شيء من
الارتياح والاطمئنان الى ما أصيب به الوندال من ضعف
وانحلال في الأخلاق لأنهم كانوا يعلقون اكبر الآمال على تلك
الحالة السيئة عساها تبلغهم غرضهم المنشود ، فتخلصهم من
سيطرة الوندال المتوحشين .

(1) نعم ما فتح الرومان القساة بلاد اليونان واقاموا بها مدة حتى ظهر
فيهم مفعول هوائها . فكأن البلاد انتقمت لابنائها من اولئك الغزاة بمجرد
خضوعها لهم ؛ وهذا مضمن المثل اللاتيني السائر (Graecia capta ferum
victorem cepit) .

(2) والقبيل اذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره .
وشاركت اهل النعيم الحصب في نعمتهم وخصبهم (مقدمة ابن خلدون ص 140) .
(3) مقدمة ابن خلدون (ص 240)

بقي علينا الآن ان نقول كلمة عن أهم الملوك الذين خلفوا القائد جنصريق في تلك الفترة القصيرة الشاقة وعن الأعمال التي أنجزوها في حياتهم ان كانت هناك أعمال ومشاريع قاموا حقاً بإنجازها وتحقيقها ؛ ونبدأ بهونيريك (Hunéric) ذلك الأمير الذي مكث مدة بالقسطنطينية رهيناً عند صاحبها؛ وهو المتزوج ايضاً بالأميرة أودوكسي أخت بلاسيديا زوج امبراطور الشرق ؛ وقد امتاز هذا الملك بضعف البصيرة وقلة اعتباره للحوادث فاعتمد على المصاهرة السابقة بينه وبين الامبراطور ، فظن فيه كل خير ولم يتفطن الى ضرورة اعداد جيش يدرك به الأخطار عن بلاده متى ما دعت الحاجة الى ذلك .

وهذا النقص الفاحش فيما يرجع للتدبير العسكري خاصة يعتبره المؤرخون بمثابة سمة اتسمت بها بلادنا في الزمان القديم ، إذ هو الذي جعل المغرب على مر العصور والأجيال كما سيجعله دائماً عرضة للقلاقل في الداخل ولقمة سائغة لأول فاتح يوجه اليه ضرباته

ولعل هذا الذي حمل الاستاذ قوتيي (Gautier) على القول بأن افريقيا الشمالية لم تحظ ساعة واحدة بالحكم الذاتي في تاريخها الحافل وان انسحاب الدولة الحاكمة لم يكن في القديم الا على يد دولة أجنبية أخرى مغتصبة كآختها ؛ ونحن وان كنا لا نقر هذا القول بتمامه نظراً لما فيه من الغلو والمبالغة لا يسعنا إلا ان نعترف بأن الكلمة السابقة تشمل

على نصيب من الحقيقة لا سبيل الى انكاره ؛ وسنتبسط ،
بعد ، بحول الله في ذكر الأسباب التي حملت الاستاذ قوتيبي
على الحكم على بلاد المغرب بمثل هذه القساوة

أما وقد جردنا الحديث الى الكلام على حيوية هذا الشعب ،
فلا ينبغي ان تحملنا كلمة الأستاذ قوتيبي على الشك فيما اذا
كانت للمغاربة شخصية بارزة بين الشعوب ، إذ في مراحل
التاريخ المغربي من شتى الآثار والعبر ما يدفع عنه تلك التهمة
بل في ذلك ما يعطي الدليل القاطع على حيوية شعب المغرب
النبيل

نعم عرف هونيريك بضعف البصيرة وسوء التدبير ؛
والواقع انه ما كاد ان يجلس على كرسي الحكم حتى انتشرت
المجاعة في البلاد وشاعت الأمراض على اختلافها نظراً لقلة
اهتمامه بشؤون الرعية ، كما عرف ايضاً بشدة تعصبه على
الكاثوليكين ؛ فلا غرو اذا انتهز البربر هذه الفرصة المواتية
وراحوا ينظمون الثورات ويشيرون المشاكل المتعددة في وجه
الحاكمين الونداليين ؛ فهذا الزعيم البربري جالبون (Galbion)
ينظم ثورة هائلة ضد الوندال ، تقوم على أثرها معارك حامية
الوطيس بين البربر والوندال في غرب طرابلس ، وينتصر فيها
الزعيم الآنف الذكر

وأما الملك الثاني الذي يستلفت نظرنا من بين خلفاء
جنصريق العديدين فهو هيلديريك (Héldéric) ولد هونيريك ؛
وقد حملته أمه عند أختها الى القسطنطينية ، فترعرع هناك

وبقي في بلاط الامبراطور الجديد جوستينيان (Justinien) وكان هيلدريك بعد تبوئه عرش المملكة المغربية عدة أعداء ؛ فلذلك رأى ان يعترف بحق السيادة لامبراطور الشرق تعزيراً لمكانته ؛ غير ان الوندال لم يعترفوا بهذا الخضوع - وفي طبيعتهم الأعداء - وعابوا عليه عدم الثقة بنفسه وانهزامه المتواصل أمام جيوش البربر، بحيث لما قام جاليمار (Gelimer) - وهو أحد أفراد العائلة المالكة - ونال بعض الفوز في مقاتلة الجيوش البربرية الثائرة عززوا جانبه ، فاستعان بهم جاليمار على هيلدريك وتبوأ كرسي المملكة مكانه .

فلما سمع جوستينيان بما أصاب صديقه الحميم ، غضب على جاليمار وكتب اليه يسأله ان يسمح لهيلدريك بالخروج صحبة عائلته الى القسطنطينية ، وكان في كتابه كأنه يتوعده ويهدده . فلم يرض بذلك ملك الوندال وكتب اليه يقول « إن الملك الذي يعمل بحكمة هو الذي يهتم بتدبير أمور دولته ولا يحول نظره الى الخارج يريد التدخل في شؤون الدول الأخرى . ثم قال « هذا وان انت نقضت العهد المبرمة بيننا فاعلم انني سأقابل القوة بالمثل (1) ! »

فرأى يوستينيانوس ان في الجواب السابق ما يحط من قدره ويمس بكرامته ، ووجد في وقاحة الكتاب المذكور خير فرصة لاعلان الحرب على جاليمار ، ومن ثم شرع يجهز حملة

(1) عن « موجز تاريخ الجزائر » لصاحبه كات ج. 1 (ص 120)

هائلة على الوندال تحت قيادة الجنرال باليزار (Bélisaire) المشهور الذي كان وبالاً على الوندال وسبباً في اضمحلال سلطانهم من بلاد المغرب كما سنقص عليك ذلك في الصفحات التالية بحول الله

أما وقد بلغك الآن كيف تسرب الوندال الى المغرب وبسطوا نفوذهم عليه ، وجب ان نجلو في بعض الصفحات نتيجة انتصارهم هذا ونقدم لك بياناً كافياً عن النظام الذي انشأوه او حاولوا انشاءه على انقاض الدولة الرومانية السابقة . ومن المعلوم ان القائد جنصريق بادر الى تقسيم المغرب بمجرد ما استتبت قدمه بهذه البلاد ، فجعل منها ست مقاطعات تختلف في مساحتها وقيمتها الزراعية ، أما الخمس مقاطعات الأولى فكانت عبارة عن المنطقة التونسية الحالية تضاف اليها ناحية تيبسة ، وأما القسم السادس فكان يشمل باقية المغرب الأوسط والأقصى (1) ووزع جنصريق تلك الأراضي الفلاحية الخصبة على أولاده وجنوده وخواصه ، واحتفظ لنفسه بأحسنها ، أما الأراضي الباقية فقد تركها بأيدي أربابها بشرط أن يدفعوا له ضرائب سنوية ثقيلة هذا وقد حاول الوندال ان يحدثوا نظاماً ادارياً جديداً ، فلم يفلحوا اذ كانت تغلب عليهم الهمجية والخشونة ، فأرأوا من الأنسب ان يحتفظوا بالنظام الروماني القديم ، وذلك ليس

(1) والواقع ان نفوذ الوندال بالمغرب الاقصى كان ضئيلاً .

محبة في الرومان أو رغبة في المحافظة على الآثار الرومانية -
كما يزعم الاستاذ أغوستان بارنار (Augustin Bernard)
ولكن عجزاً منهم عن وضع نظام أرقى من الذي كان يسود
البلاد في أيام الرومان

وكان جنصريق كسائر خلفائه مستبداً الى أبعد ما يكون
الاستبداد ، يتصرف في رعيته كما يشاء ولا يقل أن يشاطره
أحد في الملك ، وقد صمم منذ أول الأمر على إبعاد الشرفاء
والاعيان من بين أعضاء الحكومة الذين عرفوا بتعصبهم لمبدأ
ما أو بنزعة سياسية خاصة وقد بلغ به استبداده ان أصبح
لا يستدعى أعضاء المجلس الشعبي ، وقد كان يشاورهم آونة
بعد أخرى في مهام الأمور من قبل ، وهكذا راح يباشر
بنفسه مسألة تعيين الموظفين وتنصيب رجال الكنائس وأعضاء
المجلس الاستشاري كما كان يتولى بنفسه تعيين سائر الولاة والعمال.
أجل لقد شيد جنصريق مملكة عريضة ، وضرب النقود
باسمه ، تلك النقود التي كان يتصرف فيها كما يشاء ، لا فرق
عنده بين مالية الأمة وماليته الخاصة ! ولكن مثل هذا
التصرف مفهوم في حق ملك أقام دولته على القوة والاستبداد.
ولم يغفل هذا العبقرى الحاكم عن مسألة اقرار الأمن في
سائر أنحاء البلاد ، فجيش الجيوش وحافظ على الأسطول
الهائل الذي كان من الأسباب الرئيسية التي مكنته من الجواز
الى المغرب والذي لولاه لانقلب مجرى التاريخ في افريقيا
الشمالية وتوجه غير هذا الوجه الذي علمناه وحفظناه !

ثم انه نظم المحاكم على اختلافها سواء منها الخاصة بالوندال او التي وضعوها للفصل بين البربر والرومان (١) ، ومهد السبيل لتشييد الكنائس التابعة لمذهب آريوس ، مذهبه الخاص ، وأبدى كل مساعدة للقائلين بالمذهب المذكور دون سواهم بالطبع

وغني عن البيان أنه بمقدار ما كان جنصريق مستبدأ في رأيه متعصباً لدينه بقدر ما كان متشدداً في قضية الأخلاق ، وكان يعلم - فوق ذلك - ان الحياة في المدن من شأنها أن تقضي على الفضيلة والخصال الحميدة ، وهكذا راح يجتهد في اثبات أبناء جلده من الوندال بالبوادي ، ويحملهم على مزاولة الفلاحة لما يترتب عنها من المزايا الأدبية

ولكن الوندال بصورة عامة لم تطب لهم الحياة بالبادية نظراً لما كان بيدهم من النعمة والخصب ، فتركوها شيئاً فشيئاً بعد ما أسندوا حراثة الأراضي الموزعة عليهم الى فلاحين مأجورين ، وآثروا البقاء في المدن الكبرى ، كقرطاجنة مثلاً ، لما كان يتمتع به أهلها من صنوف العيش وما كان يوجد بها من الملاهي ومحلات الفرجة والاستمتاع .

وكانت مدينة قرطاجنة ، بنوع خاص ، مدينة أهلة بالسكان توفرت فيها أسباب الحضارة ودواعي المتعة والاستهتار ، فمن تجارة مزدهرة وأسواق عامرة الى حمامات متعددة

(١) تاريخ « افريقيا الشمالية » للاستاذ جوليان (ص 271 - 277) .

ورياض لا تفارق الابتسامة ثغرها ، الى ملاء مختلفة العناصر
والأهداف الى انحلال في الأخلاق

ويقبل الوندال على تلك المدينة اقبال المنهوم على الطعام ،
ويكرعون من تلك الحياة الفاسدة الماجنة ، فيصبحون عمهين
بالآثام والأوزار ، وقد فقدوا أسمى ما كانوا يتمتعون به من
المزايا والخصال

ويتنبه جنصريق الى هذه الحالة الخطيرة ، فيضرب على
يد المستهترين ويرى نفسه مضطراً الى القضاء بالكلية على عدة
أحياء اشتهر أهلها بقلّة العفاف والنحطاط الأخلاق

ثم يتربع هونيريك على العرش ، فيشجع التجار وتصبح
قرطاجنة ، بعد ذلك ، عاصمة تجارية تنتج الزيت والقمح
والمرمر وتستورد الحلي والحرير والأشياء النفيسة ، ولا ريب
ان في جلب هذه الانواع من البضائع ما يدل على ان طبقة
خاصة من سكان العاصمة المذكورة كانت تعيش عيشة
الترف والنعم

أما سياسة الوندال نحو البربر والرومان فانها كانت تمتاز
بالقوة وعدم التسامح الديني خصوصاً فيما يتعلق بالرومان، فقد
أغلقوا كنائسهم وأبعدوا القسيسين الرومانيين عن البلاد ، أما
البربر فقد أثقلوا كاهلهم بالضرائب المتنوعة وحملوهم على هدم
تحصينات المدن البربرية حتى لا تحدثهم أنفسهم بالخروج في
يوم ما ، عن طاعة الوندال ، واذا كان هؤلاء الوندال ، مع
توحشهم ، يرون أنفسهم مضطرين الى التدرع بمثل هذه

الوسائل التحفظية ، فذلك أوضح دليل على انهم لم يتغلبوا على البربر الا بكيفية نسبية ، وطبيعي ، والحالة هذه ، أن تصبح ثقة الوندال بالبربر قليلة .

وفي الواقع فلقد لقي الوندال على الدوام إغراضاً ومقاومة سلبية لا تنكر من البربر لأن هؤلاء لم يخضعوا لهم تماماً كما لم يخضعوا أبداً لمن تقدمهم من الفاتحين ، ومن يراجع مراحل التاريخ الافريقي يرى ان هذه الحالة إنما هي صادرة عن تأثير المدنية القرطاجنية القوية في نفوس الأهالي ، بحيث ظلوا متشبثين بعوائدهم ، يحسون في أعماق نفوسهم بقوة عاطفية تحملهم على مقاومة الرومان والوندال على السواء متى كانت سياسة هؤلاء وأولئك ترمي الى اخضاعهم وابتلاع شخصيتهم . ثم ان الباحث عن نتيجة الاحتلال الوندالي من الناحية الأدبية يرى بوضوح وجلاء ان البلاد المغربية لم تحي في أيام الوندال حياة أدبية بمعناها الصحيح ، وسبب ذلك ان الحكومة لم تهتم بتأسيس المدارس التي هي من دواعي الرقي والتقدم ، كما وقع ذلك في أيام قرطاجنة الزاهرة أو في أيام الاحتلال الروماني ، فلقد أعرض الوندال عن ذلك كله ، فظل الجهل ضارباً أطنابه في البلاد ، فلا من يقرأ ولا من يكتب ، ولا غرابة في ذلك ، فقد كان الوندال المتوحشون أعداء للثقافة يتبرأون منها كما تتبرأ منهم سواء بسواء ، بل دفع بهم توحشهم الى تعذيب المثقفين والتنكيل بمن سولت لهم أنفسهم ان يتعلموا الكتابة . . . !

وكل ما يمكن أن يقال في هذا الباب أنه - بعد هونيريك -
كان يوجد بقرطاجنة بعض الشويعريين في اللغة الوندالية
ومما يحكى بهذا الصدد ان جالبار نظم مرثيات كثيرة باللهجة
الوندالية يندب فيها حال الدولة الوندالية وما حل بها من
الضعف والهوان في آخر أيامها وإذا ما دلت هذه القصائد
على شيء فإنما تدل على أن الوندال حافظوا على لغتهم الوطنية
الى النهاية ، وان كانوا يستعملونها في وقت واحد مع اللغة
اللاتينية ، إلا أن اللاتينية كانت لغة الإدارات والمحاكم
والمعاهد ، والسبب في ذلك ان اللهجة الوندالية كاللهجة
البربرية عاجزة عن تأدية بعض المعاني الدقيقة وخلاصة
القول فقد ظل الوندال يتخاطبون بلغتهم الأصلية ، لكنهم
كانوا في بعض الأحيان يؤثرون استعمال اللاتينية خصوصاً في
الدواوين والمحاكم نظراً لأنها كانت أكثر انتشاراً من الأولى
وأقرب منها لفهم الجمهور

يحسن بنا في نهاية هذا الفصل ان نبحث عن النتيجة التي
أحرزها المغرب من الناحيتين المادية والمعنوية أثناء الاحتلال
الوندالي الذي استمر مدة لا تقل عن مائة عام ، وبعبارة ،
فنحن نريد ان نبحث فيما اذا كان للوندال فضل على الأمة
المغربية كما يذهب اليه البعض

الجواب هو ان الباحث المنصف عندما حاول ان يقف على
الآثار التي خلفها الوندال من ورائهم لا يعثر على شيء من ذلك

ولسنا نساير الاستاذ جوتيبي في حكمه اذ يقول « ان الوندال
زرعوا دماً جديداً في عروق الأمة الرومانية الهرمة » ، اللهم
الا اذا كان يعني بذلك التجديد تفكيك الامبراطورية
الرومانية وتخريبها أجل ، نحن لا نشك في أن المؤرخين
الرومانيين واليونانيين كفيكتور دي فيتا (Victor de Vita)
وبروكوب (Procopé) لم يتحروا التحري كله في تحدثهم
عن همجية الوندال ، فالغلو ظاهر في كتابتهم لأن الوندال -
أعدائهم بالطبع - هم الذين انتزعوا من أيديهم بلاداً عريضة
ظلت تحت حكم الرومان مدة خمسة قرون ، وخصوصاً لأن
ديانة الوندال كانت مباينة للديانة المسيحية ، بعيدة عن المذهب
الكاثوليكي بعد الساء عن الأرض إذن فلا غرابة ان
يتعصب اولئك المؤرخون المعاصرون على الوندال ويبالغوا في
وصف أحوالهم الوحشية

لكن الحقيقة المرة التي لا جدال فيها هي ان الوندال
بعيدون عن كل ما يسمى بالحضارة ولا يحسبون لها ولا
للمتصفين بها أي حساب قل لي بربك ما عسى ان يخلف لنا
من الآثار قوم وصفهم المؤرخون على بكرة أبيهم بالهمجية
والوحشية ؟ وأي فضل ينتظر من اولئك الذين كانوا يسمعون
في تعذيب المتعلمين كالمجرمين؟ على ان الامانة في الرواية تحملنا
على القول بأن الاحتلال الوندالي أسدى للأهالي منفعة لا تنكر
من الوجهة الروحية ، ذلك أنه هو الذي أنزل الضربة القاضية

بالامبراطورية الرومانية ، وهي ضربة مكنت البربر من
الخروج نهائياً عن طاعة رومة هكذا استطاع البربر ان
يسترجعوا حريتهم على يد اولئك الوندال المتوحشين بالذات
بما حل بهم من الضعف وما اعتراهم في آخر أيامهم من الانحلال
الخلقي والاجتماعي

جنصريق

يصعب علينا ان نحكم بانصاف على طبيعة جنصريق والأعمال التي قام بها اذ نحن لا نعرفه إلا بشهادة أعدائه كفيكتور دي فيتا (Victor de Vita) ، وقد كان يري في جنصريق مضطهد الكنيسة ، وبواسطة الأخبار والروايات التي بلغتنا عنه على يد بروكوب (Procope) ، وكان بروكوب يكن كراهة عظيمة للوندال نظراً لأنه كان افريقياً ، ولأجل هذا يعتبر تعصب «دي فيتا» و «بروكوب» أمراً مؤكداً غير مشكوك فيه ، وبالتالي فمن المحتمل ان يكونا قد أضافا لجنصريق من النقائص ونسبا له من الاعمال الوحشية ما لا يليق به ، وقد وصفه « جورنانديس » القوطي فقال

« كان جنصريق متوسط القامة ، سقط ذات يوم من فرسه ، فراح يعرج ، وكان بعيد الهمة ، قليل المذاكرة ، لا ميل للرفاهية ، اذا غضب كاد يتميز من الغيظ . وكان فوق

ذلك ، حريصاً على جمع المال ، خبيراً بالطريقة التي تجذب اليه الشعوب ، ولم يأل جهداً في بث دواعي الشقاق والتفرقة فيما بينها .

ومها يكن حكماً على هذا المتوحش فقد حاز نصيباً من العبقرية والعظمة ، بل كان أكثر اطلاعاً على دواليب السياسة من آتिला (Attila) وألاريك (Alaric) عديليه في ارتكاب الجرائم ، وقد استولى على قبائل لم تغلب على امرها من قبل ، وأقام مملكة واسعة على أشلاء الامبراطورية الرومانية كما أقامها على أجناس أخرى مختلفة العناصر ، فهابته كل القبائل الساكنة على ساحل البحر الأبيض المتوسط من بوغاز جبل طارق الى مضيق « ماسينا » ، وكان جنصريق كسائر القواد المتوحشين « محترماً » للمدنية الرومانية ، بمعنى انه حافظ على النظم الإدارية والمؤسسات الرومانية

أما العدل ونظام الضرائب فكانا في أيام جنصريق على ما كانا عليه من قبل ، وإذا كان الكاثوليكيون قد تحملوا بمشقة وتعب الأوامر القاسية التي كان يملها عليهم جنصريق ، فان افريقيا الشمالية لم تشهد - على ما يظهر - بؤساً شديداً في أيامه ومن الممكن ان يكون جنصريق قهر البربر ولكن أعماله منيت ، في آخر الأمر ، بالفشل التام ، وذلك شأن المؤسسين كافة الذين لا يعتمدون إلا على القوة والجبروت ، فلا يبقى امرهم قائماً إلا بفضل عبقريتهم القوية .

هذا ولقد اضمحلت عظمة الشعب الوندالي بمجرد وفاة هذا
الزعيم الأكبر ، وعجز خلفاؤه عن القيام بأعباء الملك ، فلم
يحتفظوا به إلا أياماً معدودات وكانت وفاة جنصريق
سنة 477 م .

عن « موجز تاريخ الجزائر » للاستاذ كات.
ج . 1 (ص 211)
(تعريب المؤلف)

الفصل السابع

البيزنطيون بالمغرب

(534 - 640 م .)

كلمة عن البيزنطيين - استيلاؤهم على المغرب - معركة
تراكاروم وأسباب سقوط الوندال - النظام الإداري في
أيام البيزنطيين - عصر الاضطراب - سياسة الروم - الحالة
الدينية - الحياة الأدبية والفنية في أيام البيزنطيين - خاتمة.

أشرنا في الصفحات المتقدمة الى ان الامبراطورية الرومانية
تنقسم قسمين الدولة الرومانية الغربية وقاعدتها رومة التي
خلدت ذكرها في الشمال الافريقي بما حقته من أعمال في
سائر الميادين ، والدولة الرومانية الشرقية التي كانت عاصمتها
بزنطة (Byzance) أو القسطنطينية (Constantinople)

وقد عرفت هذه الدولة الأخيرة بدولة البيزنطيين نسبة الى
بزنطة ، وأما العرب فكانوا يطلقون لفظة « الروم » على
الدولة الرومانية الشرقية بنوع خاص

وغني عن الاثبات ان كل من أراد ان يطلع على تاريخ المغرب في مختلف أطواره وفي أيام الفتح الاسلامي بالخصوص يضطر الى أن يزود نفسه بمعلومات كافية تتعلق بنظام حياة الروم وأساليبهم السياسية ومميزاتهم الأدبية والفنية، ذلك لأن الرومان أول دولة منظمة وجدها العرب الفاتحون في طريقهم، فما كان إلا ان اكتسحوا بلادهم واستولوا شيئاً فشيئاً على ممتلكاتهم أضف الى هذا ان العرب تأثروا الى حد بعيد بسياسة الروم وعلومهم التي أخذوها عنهم بطريق الوضع تارة والترجمة تارة أخرى، كما قلدوهم - بمفعول قانون الاختلاط والاحتكاك - في كثير من العادات التي كان لها بعد ذلك أسوأ الأثر في نفوس العرب

لكل هذه الأسباب السياسية والعلمية والاجتماعية وجب ان نقول كلمة عن أحوال الدولة الرومانية الشرقية ولو باختصار

وبعد، فقد عاشت الدولتان الرومانيتان ما شاء لهما ان تعيشا حتى كانت الحملة الوندالية على الرومان في افريقيا الشمالية، تلك الحملة الشعواء التي كانت بالنسبة اليهم صدمة عنيفة أصابت القوة الرومانية في الصميم.

على ان هؤلاء الوندال لم يتمكنوا من مد يدهم الأثيمة الى العاصمة البزنطية، وذلك لا لأن نظام الروم كان أرقى من النظام المعمول به اذ ذاك في الامبراطورية الغربية - حسباً يذهب اليه بعضهم - ولكن لمجرد وقوع القسطنطينية،

عاصمة الروم ، فيما وراء جبال البلقان الوعرة التي هي بمثابة السد المنيع في أوروبا الوسطى ، بحيث لم تتمكن الشعوب الجرمانية المذكورة من اجتيازها ، وهكذا قدر للدولة الرومانية الشرقية ان تعيش مدة الف عام بعد اضمحلال الامبراطورية الغربية لأسباب جغرافية محضة لا غير

ومعلوم ان سلطان البزنطيين كان يمتد الى البلقان وسوريا ومصر وبرقة ، وبما أن فتح هذه البلدان كان على يد الاسكندر المقدوني (Alexandre de Macédoine) فقد كانت عوائد أهلها ولغتهم وسائر أحوالهم تمتاز بطابع يوناني محض ، في حين ان شمال افريقيا واسبانيا وجزر البحر الابيض المتوسط التي كانت في قبضة الرومان منذ عدة قرون ، كانت تظهر بمظهر لاتيني خاص وتهيمن عليها حياة لاتينية صرفة .

وتعاقبت القياصرة على عرش المملكة الرومانية الشرقية في عيشة راضية حتى أتى عهد يوستينيانوس (Justinien) في أواسط القرن السادس الميلادي ، وكان يوستينيانوس - إذ ذاك - ينظر في مرارة الى ما آلت اليه الامبراطورية الغربية فتحذثه نفسه الموصوفة بالطمع والتعصب والتحزب يجمع شتاتها وانتشالها من يد الوندال المجرمين .

ولما وصله كتاب جالهار الآنف الذكر ، ينهاه عن تدخله في شؤون المغرب ورأى في لهجته الشديدة ما يحط من قدره ، وجد ان الفرصة قد سنحت له وصمم إذ ذاك على محاربة الوندال في عقر ديارهم ثم جمع الوزراء والأعيان والقسيسين

وأخبرهم بأنه عازم على جمع شتات الدولة الرومانية وأحياء القضية الكاثوليكية في المغرب بعد ما طغى عليها المذهب الآري الذي وجد - كما هو معلوم - كل مناصرة وإسعاف من طرف الحكومة الوندالية المفتتحة ، لكن أعضاء المجلس بما فيه كبراء الروم ووجهائهم لم يجيبوا يوستينيانوس الى طلبه بدعوى ان الجيوش الرومانية كانت قد أخفقت مرة سابقة عند محاصرتها لمدينة قرطاجنة على يد الأميرال بازيليكوس⁽¹⁾ هذا بغض الطرف عن الهزيمة الشنعاء التي حملهم الفرس إياها والتي لم تزل عواقبها الوخيمة ماثلة أمام أعين الجميع ! لكن مطامع الامبراطور السياسية وإحساساته الدينية ، ثم إلحاح بعض الرهبان والقسيسين وقد انضم إليهم وفد الرومان المهاجرين الذين وجدوا في تلك المناسبة خير فرصة للانتقام من عدوهم المشترك⁽²⁾ ، كل ذلك زعزع بالطبع صفوف المعارضين ، وهكذا رجحت في المجلس سياسة الحرب والانتقام

وأخذ الامبراطور الاحتياطات اللازمة في مثل هذه المواقف ، فعقد - قبل الشروع في العمل - اتفاقية سرية مع أهالي طرابلس وسردينيا ، ثم جمع جيشاً يبلغ عدده خمسة

(1) أنظر « مفتاح التاريخ » لصاحبه محمد البشير (ص 233)

(2) كان عدد من الرومان في أيام الاحتلال الوندالي قد اضطروا الى الهجرة والاتحاق بالقسطنطينية لكثرة ما نالهم من العنف والاضطهاد على يد أولئك الوندال المتوحشين .

عشر ألف محارب وأمسند قيادته للجترال باليزار (Bélisaire) ،
وفي الوقت نفسه جهز أسطولاً عتيداً يضم خمسمائة قطعة
حربية وذات يوم من صيف سنة 533 م. أقلع الأسطول
من القسطنطينية وتحرك الجيش بين هتافات الشعب وتهليل
الرهبان

وكان الوندال ، إذ ذاك ، قد بلغوا من الضعف والانحلال
مبلغاً يفوق حد التصديق ، لا يستطيعون معه إخماد ثورة
بافريقيا حتى يندلع لهيب ثورة أخرى بسردينيا
وينزل باليزار بالتراب المغربي ⁽¹⁾ ، فلا يلبث أن ينفصل
عن الوندال عدد كبير من البربر والوندال أنفسهم ، لما نالهم
هم الآخريين من العسف وما حل بهلدريك - صاحب التاج -
من الإهانة والاحتقار من قبل جاليمار المقتصب ويقوم باليزار
ويخطب في الجيش على ملأ من البربر اللاجئين اليه قائلاً ما
مؤداه بالتقريب « اعلموا انني ما أتيت لهذه البلاد إلا لأخذ
الحق من الظالم فأرده الى المظلوم ، ولست أضمر عداوة للأهالي
أو الوندال أنفسهم ، ومهمتي تنحصر - كما تعلمون - في الأخذ
بالثأر من جاليمار وحده » . ثم سأل الجنود ألا يتعرضوا لأموال
الناس وحذرهم من انتهاك حرمانات الشعب ⁽²⁾ ف وقعت
هذه الخطبة وقعاً حسناً في نفوس الرومان والبربر المجتمعين
حول باليزار ، وإذا هم يحملون جميعاً على قرطاجنة . وبينما

(1) بين مدينتي صيفاقص وسوسة بالضبط

(2) قابل بين هذا الأسلوب وأسلوب طارق بن زياد وهو يخطب في جيشه
استعداداً لشن هجوم على نصارى الاندلس ولاحظ كيف أن كلا الاسلوبين
قوي متين ينم عن نفس مؤمنة بالانتصار

جنود باليزار يجدون السير نحو العاصمة كان جاليبار بعيداً عنها في بعض ممتلكاته يتنزه (1)

وبعد زمان غير يسير ينتبه جاليبار من سكرته ويحاول الوقوف في وجه الجنود البرنطية، فتقوم من جراء ذلك معارك حامية الوطيس بين الروم والوندال تدور الدائرة فيها على الآخرين ، وما هي إلا عشية حتى يدخل الروم قرطاجنة براً وبحراً ، وجوهم متهلة مستبشرة ، فيقبل عليهم أمراء البربر من شتى انحاء المغرب ، يقدمون لباليزار عبارات التهاني والاخلاص (2) ، فيقرهم باليزار في مناصبهم ويقدم لهم من الصلات والخلع ما يضمن له طاعتهم وولاءهم

أما جاليبار المنكوب فقد فر بنفسه على أثر هذه الهزيمة الشنعاء ، ملتجئاً الى مكان يدعى بولاريجيا (Bulla Regia) وهناك راح يؤلف جيشاً جديداً بقصد اقتحام العاصمة القرطاجنية ، فاستدعى الكتائب التي كان قد بعث بها من قبل الى جزيرة سردينيا ، ومشى على رأس تلك الجنود نحو العاصمة ولما لم يتمكن من اقتحامها نظراً للحصون المنيعة التي شيدها الروم من حولها ، اتقاء لخطر الأعداء ، ضرب

(1) لعمرى انه لموقف غريب يدعو الى الاسف الشديد ويذكر بحالة المعتمد بن عباد الشاعر إذ كان يمرح ويلهو في بعض بساتينه خارج المدينة والعدو آخذ في محاصرة طليطلة التي كان سقوطها في يده خطوة أولى في سبيل انتعاش الاسبان وضربة قاضية على رؤوس ملوك الطوائف .

(2) راجع مفتاح التاريخ (ص 236)

عليها الحصار ، وكانت جيوشه معسكرة وقتئذ ، في مكان يدعى تراكاماروم (Tricamarum) ، وامتنع باليزار داخل المدينة ، لا يبدي أية حركة حتى سنحت له فرصة مواتية - وللفرص أثرها الغريب في كثير من الأحيان - فخرج بغتة على جاليمار في جماعة من الفرسان ، انقضت على جيوشه ، فمزقتها شر ممزق ولما شاهد جاليمار ما كان من سوء حظه لاذ بالفرار ، وتبعته شرذمة من عساكره المخلصين ، والروم من ورائهم حتى بلغوا جبال زواوة بالمغرب الأوسط ، فأحاطوا بجاليمار احاطة السوار بالمعصم ، وهناك أدركه اليأس فاضطر جاليمار للاستسلام

ويحملة القائد باليزار الى القسطنطينية أسيراً ، فيتقدم الى القيصر - والوعته ! - في حالة من الذل لا سبيل لوصفها أجل ، كان يوم جاليمار يوماً مؤلماً حقاً ، وكان مؤثراً حقاً حينما برز أمام الامبراطور ، كأنه يشكو تبرم الدهر وتصرفات الزمن الفادر - ولله نواب وصروف - متذكراً في مرارة أيام اللهو التي طوتها السنون وكأني بهذا البائس المغرور الذي عاكسه الحظ ولم تظلمه الأقدار قد وقف بين يدي الامبراطور كئيباً ولسان حاله يقول

والله لو كانت الدنيا بأجمعها تبقى علينا ويأتي عيشها رغدا ما كان من حق حر ان يذل لها فكيف وهي متاع يضمحل غدا ويرق قلب الامبراطور لهذا الغريب البائس ، فيجعل

رهن اشارته قصرأ من قصوره ، حيث يقضي جاليهار بقية أيامه بين الغربية والوحشة حينأ والحسرة والتفلسف حينأ آخرأ هذا واذا أردت ان تستقصي الأسباب التي أدت الى انهيار الدولة الوندالية ترى انها ترجع في الجملة الى سوء معاملة الوندال للبربر والرومان على السواء واخلادهم الى عيشة البذخ والرفاهية التي يعتبرها المؤرخون الاجتماعيون من أهم الأسباب الباعثة على تسرب الضعف الى الأمم والشعوب

ولم يكد الاسطول البزنطي يأخذ في الرجوع الى مقره حتى شرع الامبراطور جوستينيان في تطبيق ذلك البرنامج الذي أعده لاعادة تنظيم المغرب ومكافحة السلالة الوندالية هناك حتى تضحل وبالفعل عين ابتداء من سنة 534 م . حاكماً عاماً على البلاد له السلطة المطلقة على سائر الامور الادارية والمالية والعدلية وهذا الحاكم العام كان يساعده مباشرة في القيام بأعماله عدد من المستشارين والموظفين خصوصاً فيما يتعلق بمسألة المالية وكان البرنامج المشار اليه يقضي بإعادة تقسيم البلاد ، فوقع تقسيمها الى سبع مناطق وهي

1 - المنطقة الشمالية (Zeugitane) ، وهي عبارة عن

شمال تونس

2 - المنطقة الجنوبية (Byzacene) او الجنوب التونسي .

3 - نوميديا (Numidie) وقاعدتها قسنطينة (Cirta) ،

4 - القيصرية الشرقية (Mauritanie) ومركزها مدينة
سطيف (Sitif) بالجزائر

5 - القيصرية الغربية (Mauritanie Seconde)
ومركزها القيصرية شرشال (Césarea) التي مر ذكرها في
شيء من التفصيل

6 - موريطانيا الطنجية (Mauritanie Tingitane) أو
المغرب الأقصى وقاعدته إذ ذاك مدينة سبتة ذات التاريخ
الحافل في الغابر والحاضر

7 - جزيرة سردينيا (Sardaigne)

وكان لكل من المناطق السابقة عامل يدير شؤونها تحت
نظر الحاكم الكبير ، صاحب قرطاجنة ، وهذه الوظائف
كانت تباع بأعلى ثمن مستطاع ، ومعلوم ان المرشح لرتبة عامل
مثلا ، لم يكن ينفق الاموال الباهظة لنيل الوظيفة المذكورة
الا ليستثمرها بكل معنى الكلمة ويحصل في أقرب وقت على
ثروة ضخمة عريضة مها كلفه الامر ؛ فلا غرابة - والحالة ما
ذكر - ان تعددت الضرائب والأتاوات على اختلافها وكثرت
نفقات الدولة ؛ فثقلت المغارم على الرعايا مما حمل المؤرخ
بروكوب (Procopé) على القول بأن الظلم والتعدي الصادرين
عن الادارة البيزنطية فيما يتعلق بالمسألة المالية كانا سببين في
امتصاص ثروة البلاد المغربية وافقار أهلها
أما الجند المرابط في شمال افريقيا ، فكان يتألف من
عناصر ثلاثة .

1 - البزنطيون ومنهم الفرسان والمشاة

2 - البربر

3 - الجنود الأجورون

وكان يترأس هذا الجند قائداً اعلى يدعى باللاتينية (Magister Militum) ومركز قيادته قرطاجنة وكان هذا القائد يستعين على القيام بأعماله العسكرية بملازم يتولى خصيصاً قيادة فرق المشاة (Magister Peditum) وغني عن البيان ان هذه الجنود المربطة بالتراب المغربي لم تستخدم لفائدة اقرار الامن فحسب بل استعملها الرومان لتشييد حصون منيعة تعينهم على دفع شر العدو كما فعل من قبلهم الرومان ابناء اعمامهم الذين كان جوستينيان يفتخر بنظامهم ويحرص كل الحرص على اقتفاء آثارهم

والواقع ان تلك السلسلة من الحصون الواصلة بين أهم المدن المغربية تعتبر بمثابة حدود فاصلة بين الصحراء والمناطق الواقعة بالفعل تحت سلطة البزنطيين

والمؤرخون يخبروننا ان تلك السلسلة من الابراج كانت تذهب من مدينة قفصة فتصلها بتيبة ثم تعرج على تيمجاد (Timgad) ولا مبالز ومن هناك تنحدر الى الجنوب قليلاً؛ ثم تستقيم عمودياً فتتوجه الى الشمال ؛ ومن ثم تنعطف غرباً لتحاذي البحر الابيض المتوسط عندما تبلغ المنطقة التي توجد بها مدينة رأس ماتيفو (Rusguniae) والجزائر (lcozium).

وتيبازا (Tipaza) وشرشال (Cesarea) وتنس (Cartennas) (1).

أما في المغرب الأقصى فقد كان نفوذ البزنطيين ضئيلاً لا يشمل سوى المنطقة الشمالية منه وخصوصاً مدينة سبتة نظراً لموقعها المناسب بين البحر المحيط والبحر المتوسط على بضعة أميال من بلاد إسبانيا يستنتج اذن من البيان السابق ان المساحة التي وقعت فعلاً تحت نفوذ البزنطيين كانت ضعيفة بالنسبة للمنطقة التي كانت تسيطر عليها الدولة الرومانية ابان عظمتها فهل في ذلك ما يشعرنا بتضعف موقف الفاتح الاجنبي وتطور الحالة السياسية بصورة عامة في المغرب ؟ او على العكس ، هل رغبة البزنطيين الحقيقية كانت ترمي الى تحديد دائرة النفوذ البزنطي ؟ يقول بعض المؤرخين جواباً عن السؤال السابق : ان الذي كان يهم البزنطيين من المغرب ، قبل كل شيء وبعد كل شيء ، هو الاستيلاء على الموانئ والمرافئ ، وذلك لأغراض تجارية محضة ، مثلهم في ذلك كمثل القرطاجنيين من قبلهم

أما نحن فنعتقد ان هذا التحليل وحده لا يصيب الحقيقة في الصميم بعد ما علمنا من عزم يوستينيانوس على انتشار الامبراطورية الرومانية من الهوة التي وقعت فيها وبسط اقوى ما له من نفوذ على بلاد المغرب ؛ ولذلك نعتقد مع جمهور المؤرخين أن تقلص منطقة الاحتلال في ايام البزنطيين ليس مجرد اتفاق ، ولم يكن للبزنطيين فيه أية رغبة ؛ بل هو نتيجة

(1) انظر الخريطة صفحة 149.

لتطور سياسي ملموس ، وهو دليل قاطع على تنبه الاهالي وانتقالهم من مرحلة الفتور والانقياد الى دور الحركة والوعي القومي ؛ ولعل ان ما امتاز به هذا العصر البنظي من كثرة الاضطرابات وتعدد القلاقل مما جعل البنظيين يكابدون الامرين مع الاهالي حتى في أوائل فترة الاحتلال ، وذلك بالنظر الى سرعة تنقل فرسان البربر وعدم تمكن الجنود البنظية من مجابهة الجنود البربرية ومقاتلتهم وجهاً لوجه والواقع انه كان من المستطاع ان يقضي البربر على قوة البنظيين فيخرجوهم من بلادهم ؛ ولكن البنظيين عرفوا كيف يبذرون بذور الشقاق بين الاهالي من حضريين وبدويين ؛ فضربوا بعضهم ببعض وضمنوا اخيراً لانفسهم السيادة على الجميع ويمكن ان نقول بأن تاريخ المغرب ابتداء من عصر البنظيين هذا هو عبارة عن كفاح مستمر مرير بين الجماعتين المذكورتين ، اهل الحضر واهل الوبر وبعبارة أخرى بين ساكني المدن وساكني الخيام . أجل لقد اندلع لهيب الثورة الأولى ضد الروم ، فتجرد لمقاومتها حاكم معروف يدعى صولومون (Solomon) له خبرة كبرى بالشؤون السياسية ، فانتصر على الاهالي ؛ ويظهر ان صولومون هذا الذي كان على بينة من شؤون السياسة العامة لم يمكن يعلم شيئاً كثيراً عن سياسة الجنود والعساكر ؛ ولذلك ساءت معاملته معهم فكانت النتيجة ان انفضوا من حوله وانضموا الى بعض رفاقه اسمه ستوزاس (Stozas) وكان ستوزاس قوي العزيمة ، يمتاز بالشجاعة والاقدام . فقاد صفوفهم

الى قرطاجنة واشعلوا فيها النيران ، فاضطر صولومون الى الفرار ثم اقبل القائد باليزار الشهير ، فهاجم البربر وانتصر عليهم مرة اخرى انتصاراً لا مثيل له

وعاد صولومون الى منصبه الاول بقرطاجنة وراح يعمل كل ما في وسعه لاقرار الامن والنظام ولكن صفاء الجو لم يدم طويلاً ؛ فقد ثار بربر طرابلس على الحكومة البزنطية ؛ وتجرد صولومون لمقاومتهم ، فكان هذه المرة قليل الحظ ، اذ كبا به فرسه ، فلقى حتفه أثناء المعركة

واستمرت الثورات وتوالت القلاقل والنكبات على عهد ولاية ليس لهم أدنى دراية بدواليب السياسة حتى تنبّه الامبراطور الى ضرورة جعل حد لهذه الحالة المؤلمة ، فبعث الى المغرب حاكماً قديراً له خبرة بأحوال البلاد هو جان طروجليطة (Jean Troglita) . فما كاد طروجليطة يلتحق بمقره الجديد حتى شمر على ساعديه وبعث لعدة قبائل بربرية يساومها في عدم التدخل في الكفاح القائم بينه وبين جماعة الثوار ؛ فلما تم له ما كان يريد حمل على البقية الباقية من البربر واستولى على سائر البلاد . فعاد الهدوء ورجعت السكينة في كل ناحية منها ولو كان ذلك بصورة مؤقتة

هذا ولم يتبع الروم سياسة واحدة مع مختلف السكان فبينما كانوا - مثلاً - يعاملون الوندال بمنتهى القساوة والشدة لأسباب ظاهرة لا حاجة الى تكرارها ، كانت سياستهم مع الرومان مطبوعة بطابع الرفق واللين وقد حملت الحكومة

البرنطية بعض الوندال على الانتقال الى القسطنطينية؛ فسخرهم
الامبراطور لخدمته الخصوصية؛ أما الذين لبثوا بافريقيا فانهم
تجرعوا من كؤوس الذل والهوان الشيء الكثير منعهم القيصر
عن التجاهر بالديانة الآرية وحرّم عليهم الانخراط في سلك
الموظفين، بل استصفى منهم الاملاك التي اغتصبوها، قبلاً من
يد الرومان، والحقها بالممتلكات القيصرية وبكلمة واحدة
عمل الامبراطور على محق السلالة الوندالية بشتى الوسائل
المشروعة وغير المشروعة، سواء بمناسبة أو بغير مناسبة، دون
أن يتفطن الى ما سيجرب عن ذلك من نقص في العمران
وفساد في الملك ومعلوم ان «حصول» النقص في العمران عن
الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه ووباله عائد على
الدول (1).

أما سياسة الروم مع الرومان فكانت - كما اسلفنا - لينة
نظراً للعلاقات الودية والروابط الدينية التي كانت تجمع بين
هاتين الامتين؛ وفعلاً فقد عمل الروم على استجلاب ذرية
الرومان والتحبب اليهم وبيان ذلك ان الحكومة اصدرت
امراً يقضي على الوندال برد جميع الاملاك التي اغتصبوها من
الرومان إلى اصحابها ومن الطبيعي ان يحدث مثل هذا
القرار قلقاً عظيماً في النفوس؛ ومن الطبيعي أيضاً ان يثير
الرغبة والطمع في بعض النفوس الاخرى التي لا تراعي في الله

الا ولا ذمة ؛ فتجعل طائفة من الروم تقوم فتطالب بأملاك
تارة بحجة وتارة أخرى بغير حجة ومفهوم ان هذه الحالة
المرتبكة انما هي ناجمة عن القوة والتأييد اللذين وجدتهما
الرومان في جانب الحكومة الرومية

أما البربر - أهل البلاد - فقد سلك معهم الروم سياسة
خاصة قوامها استمالة الرؤساء وبذر بذور الشقاق فيما بينهم
وقد كان الروم يعلمون - كما علم الرومان قبلهم - انهم لا
يزالون بخير ما دامت كلمة الاهالي متفرقة لم تجتمع وقلوبهم
شتى ؛ ولهذا كانوا يستقدمون رؤساء البربر لقرطاجنة ؛
فيسبغون عليهم من الحلل والخلع ما يثلج صدورهم ويجعل
ألسنتهم رطبة بالثناء عليهم ؛ ثم يوسوسون لهم حتى يغيروا
بعضهم على بعض ولو علمت ما كان بين رؤساء البربر من
البغضاء والشحناء والتنافس في أتفه الأمور وأحقرها شأناً
لعرفت مقدار تطاحنهم وتهافتهم على أبواب الحكومة البزنطية
سعيّاً في اشباع رغباتهم وتحقيق مصالحهم الشخصية كل ذلك
والروم ينظرون اليهم في شيء من الغبطة والارتياح بما نفذ
فيهم من سياسة التفرقة والسيادة .

ولما أراد يوستينيانوس ان يشهر الحرب على جاليار لانتشال
الامبراطورية الرومانية من أيدي الجرمان كان ينوي في
الوقت نفسه مساعدة الكنيسة واعادة الكاثوليكية الى ما كانت
عليه من القوة والجبروت . ولقد ساعده الرومان على تطبيق

هذه النقطة الثانية من البرنامج ؛ فبالغوا في اضطهاد الوندال وأصحاب المذهب الدونتاني (Les Donatistes) وأفرطوا في تعذيب اليهود الذين منعوا من الالتحاق بسلك الموظفين ؛ فهاجروا إلى البوادي وفي أنفسهم ما فيها من الحقد والغضب على الحكومة القائمة ثم أمر الامبراطور بترسيم الكنائس القديمة وبناء كنائس أخرى على شكل هندسي لطيف يبرهن لك على أن المهندسين المغاربة في ذلك الزمان ، كانت لهم يد طويلة في فن التزييق والترخيم

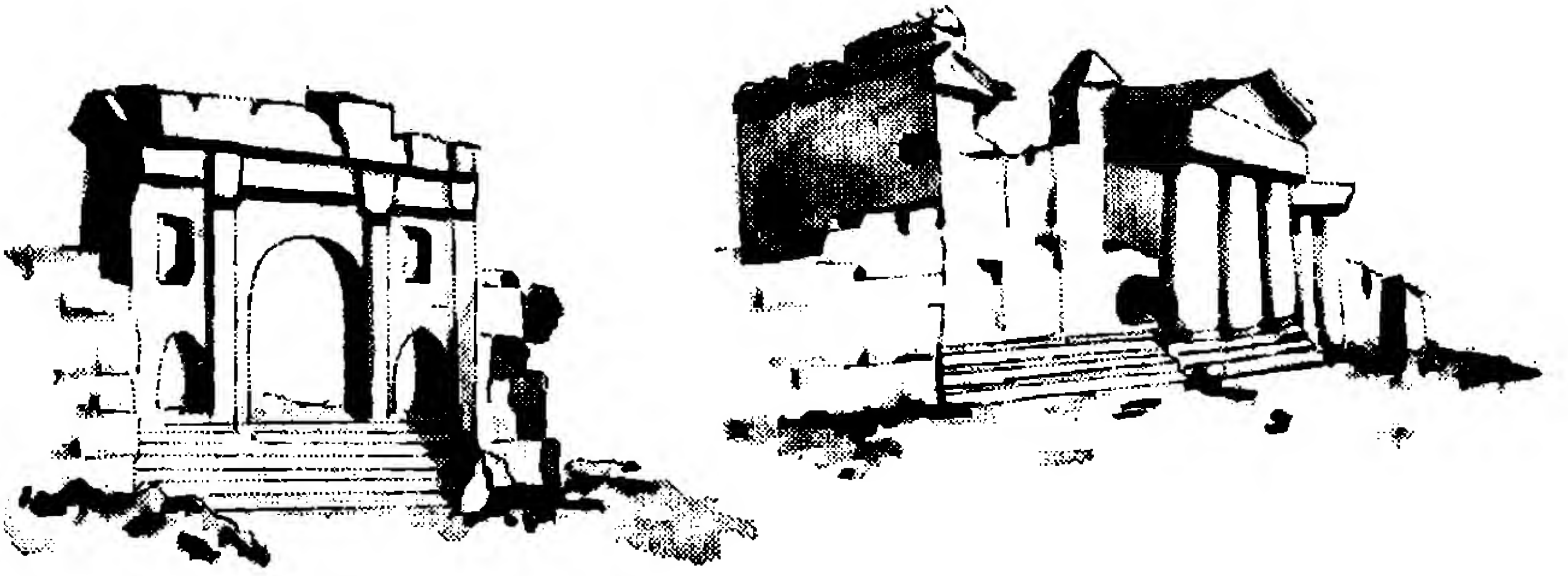
لكن الكنيسة أصيبت آنذاك ، في بلاد المشرق ، بداء عضال سرعان ما سرى في أحشاء الكنيسة الافريقية ؛ وذلك المرض الذي أوهم منها العظم هو داء المناقشات الجزئية - المعروفة بالبنظية نظراً لتفاهتها - والخلاف لمجرد الخلاف في المسائل المذهبية وسادت الفوضى من جراء ذلك فيما بين القسيسين وكثرت بينهم دواعي التحاسد والبغضاء ، وانحطت أخلاقهم إلى درجة لا يمكن تصورها ؛ ثم شاعت مرة أخرى مذاهب دينية شتى عملت على محاربة الكاثوليكية أو كانت على الأقل حجر عثرة في سبيل تقدمها ؛ ومما زاد في الطين بلة مشاركة القسيسين المصريين في الخلاف العام وكانوا قد نزحوا عن مصر على إثر دخول المسلمين إليها

وخلاصة القول فإن ذلك الخصام المذهبي العنيف كان من

الأسباب الرئيسية التي فككت أوصال الامبراطورية الرومية
بالمغرب ومهدت السبيل للعرب الأشاوس الذين طلعوا عليها
إذ ذاك من طرابلس ، يضربون أكباد الإبل إلى المغرب ، بين
صهيل الخيول وقعقة السيوف

ولم يمنع البزنطيين ما كانوا يقاسونه من الحن في سبيل
إخماد الفتن واستجلاب رؤساء البربر ، واضطهاد طائفة لا
يستهان بها من السكان من ممارسة الآداب والاشتغال بشتى
العلوم والفنون فالمؤرخون على بكرة أبيهم يخبروننا بأن
بضاعة العلوم والآداب كانت نشيطة نافقة في أيام البزنطيين
ولا سيما في مدينة قرطاجنة ولقد اهتم البزنطيون بصفة
خاصة بنشر العلم وإحداث المدارس في أهم المدن والعواصم ؛
غير ان الآثار الأدبية التي جادت بها قرائح كتاب ذلك الجيل
وأدبائه عبثت بها يد الإهمال ؛ فلم يصلنا من كل ذلك سوى
منظومة لاتينية واحدة من نظم الشاعر الافريقي كوريبوس
(Corripus) كتبها في مدح الحاكم البزنطي جان طروجليطة
وسماها « اليوحانية »⁽¹⁾ (La Johannide) ونحن وإن
كنا نشك كثيراً في قيمة الناظم إلا أننا نرى للقطعة في
حد ذاتها فائدة تاريخية عظيمة ، لا لكونها تتضمن مدح طروجليطة
وتعدد مزاياءه ، بل لأنها تشمل على وصف دقيق لبلاد المغرب
وأحوال المغاربة في أيام كوريبوس

(1) نسبة الى جان (أو يوحنا Johannes) طروجليطة



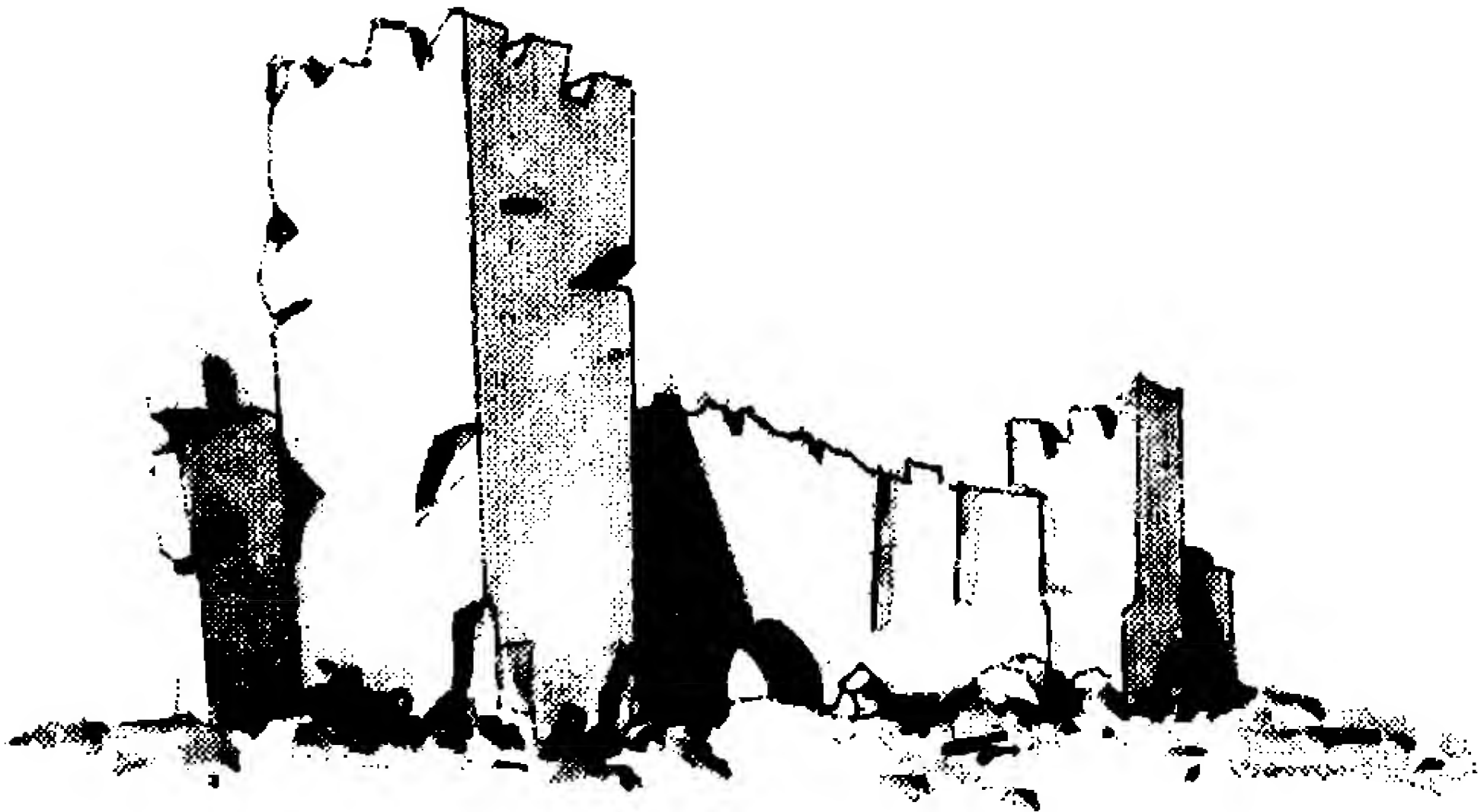
هياكل جميلة بمدينة سبيطلة (تونس)

أما من الناحية الفنية فقد برهن البزنطيون على علو كعبهم فيها ؛ آثارهم المعمارية الجميلة لا تزال ظاهرة للعيان نذكر منها على سبيل الإشارة تلك الكنائس الفخمة التي تفننوا في تزويقها وتجميلها والحصون المنيعة التي شيدت حول أهم المدن والأسوار والمعابد والهياكل المزينة بالفسيفساء والرخام التي بقيت منها بعض الأطلال الجميلة بمدينة سبيطلة (Suffetula) كل هذا وذاك يظهر لنا بوضوح انه كانت للبزنطيين قدم راسخة في فن الهندسة والعمارة

وبعد فان المتتبع لأهم مراحل التاريخ المغربي القديم التي جلونها في الصفحات المتقدمة لا بد من أن يلاحظ هناك ظاهرتين خطيرتين قد امتازت بهما هذه الحقبة من الزمان ابتداء من نزول الفينيقيين بالمغرب إلى عهد البزنطيين وهاتان الظاهرتان هما عدم تمكن الأهالي من الحصول على

الوحدة السياسية المنشودة ثم سرعة تعاقب الفاتحين على هذه البلاد ، الأمر الذي دفع ببعض المؤرخين إلى القول بأن الشعب المغربي مجرد عن كل مزية روحية تذكر

وغني عن البيان ان في هذا التصريح ما فيه من الغلو والتعصب ، إذ يكفي أن نسرّد لك أسماء بعض العظماء الذين انجبتهم هذه البلاد كحنبل ومسينسا وأوغستان والكاهنة وطارق بن زياد ويوسف بن تاشفين وعبد المومن وابن خلدون وغيرهم وغيرهم لنقيم البرهان على بطلان التصريح الانف الذكر . وإذا كان الشعب المغربي قد استسلم بسهولة للفاتحين من قرطاجنيين ورومانين ووندال وبنزطيين ، وجعل البربر في حالة يعجزون معها عن العمل لفاية واحدة والحصول على الوحدة السياسية المنشودة التي طالما سعى من أجلها الخطباء.



قلعة بنزطية بالمغرب (تونس)

وتغنى بها الشعراء فذلك يرجع إلى قلة طرق المواصلات التي لها أثرها البعيد في تقريب المسافة بين الجماعات ، كما يرجع إلى انقسام البربر شيعاً وأحزاباً وتنافسهم في الحصول على أغراضهم الشخصية قبل العمل للمصلحة المرسله ؛ ثم ان الذي عاق أولئك البربر عن التقدم أكثر من هذا كله وعرقل مساعيهم الكبرى هو عدم تدينهم بديانة سماوية سمحة تعمل على توحيد صفوفهم وبث الثقة فيما بينهم

ولعل أن الإسلام سيكون عاملاً كبيراً على توحيد تلك الصفوف وبث الثقة في النفوس استعداداً للحصول على الوحدة السياسية المنشودة

حالة الروم قبيل ظهور الاسلام

على عهد يوستينيانوس الاول يعني في اواسط القرن السادس بعد المسيح انتقلت دولة الروم من حيز الدفاع الى مجال الهجوم لأن هذا القيصر ، كما اسلفنا ، كان طامعاً في جمع شتات السلطنة الرومانية القديمة والاستيلاء على ممالكها الغربية التي تغلبت عليها القبائل الجرمانية لكن لسوء حظ الروم أصيبت دولتهم بداء عضال لم يزل يوهن منها القوى وهي لا تعالجه ويزعزع منها الأركان وهي لا تتلافاه الى أن قضى على حياتها السياسية ولهذا الداء أسباب ترجع الى أمرين جديرين بالاعتبار وهما

1 - سوء الإدارة ومنشأه الاستبداد

2 - الغلو في الدين الناتج عن جهل الراعي والرعية وتحكم سلطان الغرور والأوهام والضلالات على جميع طبقات الأمة بحيث ضربت على أبصار القوم غشاوة حالت بينهم وبين النظر في مصالحهم الحيوية

— أما سوء الإدارة فيبانه ان القياصرة كانوا على غاية الاستبداد وكانوا يتوهمون ان الله ملكهم أمر العباد ورقابهم وأموالهم ليتصرفوا فيها بما شاءوا وكما شاءوا وعلى منوالهم نسج رجال الدولة وولاة الأحكام ؛ فأخذوا يجمعون الأموال لمصالحهم الذاتية ويسخرون الرعايا لفائدتهم الشخصية ؛ وبذلك فات المقصود من وجود الدولة وهو القيام بالمصالح العامة ؛ وحل الصالح الخاص محل الصالح العام وذلك هو البلاء العظيم في الدول الاستبدادية قديماً أو حديثاً ، وقد كانت نتيجة تلك السياسة القبيحة في دولة الروم

اولاً — تثقيل الضرائب لجمع الأموال التي يصرفها القيصر في شهواته وشهوات حاشيته

ثانياً — ظهور داء الرشوة في جميع الطبقات الادارية لان الناس على دين ملوكهم ، والكل كانوا في حاجة الى المال لتمكن داء الترف من الجميع

ثالثاً — الضغط على الرعية حتى لا تشكو ظلامه

وبهذه السياسة المشثومة نفر الناس من سلطة الروم وتقوم الرعية من حكامها أقوى عامل في زوال الدول اذ لا قوام لها الا بالتعاقد على المصلحة بين الحاكم والمحكوم

أما الغلو في الدين فقد بلغ فيه الروم الى حد انحلت به عرى وحدتهم القديمة ؛ فتفرقوا شيعاً وثار بينهم الخلاف في المسائل المذهبية ، وكان ابتداء ذلك من القرن الخامس بعد

المسيح حيث ظهر مذهب « المونوفيزيت (Monophysites)
القائلين بتجسد الكلمة وامتزاج اللاهوت بالناسوت (1) وهو
مذهب اليعقوبية، وهم أصحاب راهب يدعى يعقوب البودغاي؛
وقد تمسك بهذا المذهب غالب الأرمن والأقباط وكان الروم
(بين ملكانية) و (اورتودكس) ينكرونه فقام بين تلك
الفرق مجادلات ومناقشات تفاقم أمرها بتداخل القياصرة
بعضهم بالانتصار الى الارثودكس مثل يوستينيانوس الذي اضطهد
المخالفين لمذهبه ، وبعضهم بالتساهل مع الخوارج وبتداخل
الدولة في تلك الخلافات المذهبية اتسع الخرق في افتراق كلمة
الروم لان انضمام ذلك الى الاستبداد وسوء الادارة ازداد به
نفور غالب الرعية من حكامها، وفشت فيها كثير من الرذائل
كالجبن والخيانة والنفاق ولا سيما كبراء الحكم ورؤساء الدين ،
وتحاسدهم وتباغضهم وتوهمهم أنهم من طينة والرعايا من طينة
اخرى ؛ فأعرضوا عن مصالح الاممة وأقبلوا على التصلف
والبذخ والفخفة والابهة الفارغة وبمجموع هذه الاسباب
انحلت عرى دولة الروم وانتشر سلكها وتداعى هيكل مجدها.
هكذا كان الروم عند ظهور الاسلام

عن « مفتاح التاريخ » لمحمد البشير

(ص. 226 - 228)

(1) انظر تاريخ افريقيا الشمالية للاستاذ جوليان ص 312

مراجع هذا الكتاب

1 - المراجع العربية

- 1 - « قرطاجنة في أربعة عصور » أحمد توفيق المدني -
طبعة تونس 1926
- 2 - « المقدمة » للفيلسوف الاجتماعي عبد الرحمان بن
خلدون - طبعة مصر
- 3 - « كتاب العبر » لنفس المؤلف
- 4 - « مفتاح التاريخ » لمحمد البشير طبعة تونس 1928
- 5 - « تقويم المنصور » (السنة الخامسة) لاحمد توفيق
المدني - سنة 1929
- 6 - « فتوح افريقيا والاندلس » لابن عبد الحكيم - طبعة
كاربونيل الجزائر سنة 1942
- 7 - « هانيبال » بقلم الدكتور حسين مؤنس (مقالات
عن الرسالة المصرية الغراء)

2 — المراجع الفرنسية

1 — E. F. - GAUTIER : Le Passé de l'Afrique du Nord. Éd. Payot - Paris, 1942.

2 — E. F. GAUTIER: Genséric, Roi des Vandales, Payot - Paris, 1932.

3 — A. JULIEN Histoire de l'Afrique du Nord, Payot - Paris, 1932.

4. — E. ALBERTINI, G. MARCAIS et G. YVER : l'Afrique du Nord dans l'Histoire - Ed. Archat Lyon - Paris, 1937.

5 — CAT Petite Histoire de l'Algérie, tome I. Imprimerie de l'Académie, 1889.

6 — J. BERNARD : Note sur les Aqueducs antiques de Cherchel - Bulletin de la Société Historique Algérienne No. 361 (4eme trimestre 1934).

7 M. CHRISTOFLE : Essai de restitution d'un Moulin à huile de l'époque romaine à Ma-daure, Ed. J. Carbonel, 1930, Alger.

8 – A. BOURGAREL – Musso : Recherches Economiques sur l'Afrique Romaine Bulletin de la Société Historique Algérienne, N^o . 360 et 361, (3^{eme} et 4^{eme} trimestres 1934).

9 – ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM; article: Les Berbères.

10 – G. DEZ et A. WELLER, l'antiquité (Rome) . Hachette, 1938. Paris.

للمؤلف

(1) بالعربية

- 1 — نصائح وإرشادات في التربية والتعليم
بالاشتراك مع عبد المالك السليمانى والعربي المسعودي
- 2 — نصائح عملية لمعلمي المدارس القروية
بالاشتراك مع عبد المالك السليمانى والعربي المسعودي
ومحمد الحجوى
- 3 — تاريخ الدول الإسلامية (الجزء الاول)
بالاشتراك مع محمد المهيأوي
- 4 — الجديد في تاريخ المغرب
- 5 — طريقة تعليم الحساب (كتاب المعلم)
بالاشتراك مع حسين البكاري ومحمد غياتي وهنري موفري
- 6 — دروس الحساب لتلامذة القسم الابتدائي الاول لنفس
المؤلفين
- 7 — دروس الحساب لتلامذة القسم الابتدائي الثاني لنفس
المؤلفين
- 8 — التكوين المهني (خمسة أجزاء)
بالاشتراك مع محمد عبد الحميد الدميري ومحمد محي الدين
المشرفي ومحمد غياتي ومحمد العالم

- 1 — في التربية
- 2 — في طرق تدريس اللغة العربية
- 3 — في طرق التدريس الخاصة
- 4 — في علم النفس
- 5 — في التشريع المدرسي وآداب المهنة
- 9 — القراءة المغربية لتلاميذ الشهادة الابتدائية
بالاشتراك مع محمد بن زيان ومساعدة محمد الطمار
والجيلالي فاصلا

(2) بالفرنسية

- 10 — Bien lire et comprendre
(en collaboration avec Henri Tranchart)
- 11 — Textes Français pour la classe d'observation
(en collaboration avec H. Tranchart)

جدول الصور والرسوم والخرائط

الصحيفة	المصدر المعتمد عليه	موقع الرسم من هذا الكتاب (الصحيفة)
	كل هذه الرسوم من عمل الرسام (سعود الايوبي)	16 - 13 24 - 18 27-25-24 39-38-28 79-62-47 93-90-86
41 - 40	عن « مكتب الآثار المغربية القديمة » الرباط	21
49 - 48	عن « ماضي افريقيا الشمالية » لجوتييه	21
67	عن (ماضي افريقيا الشمالية) لجوتييه	47
72	عن « قرطاجنة في اربعة عصور » ل احمد توفيق المدني	67
155	» » »	81
54	» » »	159
96	عن « افريقيا الشمالية في التاريخ » البارتييني مارس ايفار	70
	»	85

تتمة الجدول

الصحيفة	المصدر المعتمد عليه	موقع الرسم من هذا الكتاب (الصحيفة)
87	(افريقيا الشمالية في التاريخ) البارتيني مارس ايفار	86
89	(افريقيا الشمالية في التاريخ) البارتيني ايفار	89
215	عن (جنصريق ملك الوندال) لجوتيه	41
73 - 72	عن (جنصريق ملك الوندال) لجوتيه	117
81 - 80	عن (جنصريق ملك الوندال) لجوتيه	121
281-280	عن (جنصريق ملك الوندال) لجوتيه	149
191	عن (تاريخ الامم القديمة ، رومة) لدياز وفيلير	62
181	عن (تاريخ الامم القديمة ، رومة) لدياز وفيلير	66
7 - 6	(بحث القناطر المائية بمدينة شرشال ج. بيرار)	93
	(بحث يتعلق برحى زيتية قديمة ترجع لعهد الرومان) كريستوفل	96
7		
313	عن (تاريخ افريقيا الشمالية) لجوتيان	160
	جميع هذه الرسوم السابقة أعيد نسخها من قبل الرسام سعود الايوبي	

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الاهداء	3
تمهيد	5
الفصل الاول كلمة في وصف افريقيا الشمالية	7
الفصل الثاني سكان افريقيا الشمالية الأقدمون	20
للمطالعة العصر الحجري بالمغرب	33
الفصل الثالث عصر الفينيقيين	36
للمطالعة تقرير رحلة مانون	53
الفصل الرابع التنافس السياسي بين رومة وقرطاجنة	58
للمطالعة اليوم الرهيب	73
الفصل الخامس افريقيا الرومانية	76
للمطالعة 1 — الديانة المسيحية بالمغرب	109
2 — دمة على صديق	113
الفصل السادس افريقيا الرومانية تحت سيطرة الوندال	115
للمطالعة جنصريق	138
الفصل السابع : البيزنطيون بالمغرب	141



طبع في لبنان